ثكافة بالنسكافيه

* الكتاب: مجموعة قصصية. ثكافة بالنسكافيه
* الكاتب: طنطاوي عبد الحميد طنطاوي
* مراجعة لغوية: قسم التحرير بدار المنتدى
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدى
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدى
* رقم الإيداع: 16597/ 2022
* الترقيم الدولي: 978-977-68240-1-4

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

978-977-86240-1-4

ثكافة بالنسكافيه

حكايات عن واقع مُر تثير الضحك

وكما قالوا: شر البلية ما يضحك

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

المسحوب من لسانه

عندما سألتُه:

- الدنيا كلها من حواليك اتغيرت وأنت لسة محلك سر.. حزين طبعًا؟

يبتسم وأنا أواصل:

- أفكارك زي ما هيا وراسك زي الحجر الصوان ماحدش يقدر يكسرها، صعبان عليا وانت في ظروفك دي، بس انت مش صعبان عليك نفسك؟

هز رأسه نافيًا وجابهني بابتسامته المعتادة ولكنها واهنة متعبة، عدت لأسئلتي التي أحاول من خلالها الضغط عليه علني أحظى باعترافٍ يريحني، أن يردد بأنه يتأسف على عمره الفائت، لكن لم يقل ذلك، أنا من أسفت كثيرًا على مسيرته الفنية والثقافية التي لم تتوج بأكبر الجوائز في بلدنا، دائمًا يحاول أن يقنعني بأنه مستريح جدًّا وأنه حاول وأن مجرد المحاولة شرف، حاولت أن أضع مبلغًا أعددته مسبقًا ووضعته في مظروف تحت مخدع رأسه، بما تبقى لديه من قوةٍ قبض على يدي وضغط عليها وحاول أن يردها؛ لكنني صممت، ويبدو أن حالته المرضية انعكست على أطرافه فقد وهنت يداه، أقسمت له بالله العظيم بأن هذا جزء من مبلغ له في حوزتي منذ زمن بعيد، أخيرًا وافق وسكت وشعرت في عينيه بامتنان وحب.

لا أنكر، لقد خفت ووليت هربًا لبلد عربي وتكسبت الكثير من هناك، فما يدفعنا إليه بتصميمه لن يجدي نفعًا، حاولت إقناعه

أن نجاري الجو و"الدنيا بتتغير ولازم ندور على لقمة عيش متغمسة بالشهد زي الهلافيت اللي حوالينا"، لكن رأسه وألف سيف أنه "ما هيتعتع من هنا ولا هيسافر بره البلد حتى لو شنقوه"، حاولت أن أدفعه بأساليب كثيرة:

- يكفي إنهم بيقولوا عليك شيوعي وبلا قضية وانت بتركب الموجة زيك زيهم تمامًا.

ضحك يومها وقال:

- اللي يقولوه يقولوه، أنا قاعد على قلبهم.

يومها قررت الفرار وسافرت، وكسبت كثيرًا وجاريت الجو في بلادنا العربية أو في مصر، وهو كان نصيبه السجن أكثر من مرة، وحتى الزواج لا تزوَّج ولا اتنيل، وتزوج القضية، وتاهت القضية ولم يجد أحدًا جنبه.

قاربنا السبعين، وما أجمل أن نجتر ذكرياتنا، هو قليل الكلام بحكم مرضه، كان لزامًا عليَّ أن أقص الأحداث تباعًا، وخاصة تلك التي كانت سببًا مباشرًا في الغضب علينا؛ فعلى سبيل المثال في الستينات ونحن في أول طريقنا، قال بعظمةٍ بالغة:

- علينا أن نفضح الأعمال المستفزة التي يفعلها أصحاب الشأن.

يومها شمر عن ساعديه وكتب إحدى روائعه التي لم تجد النور، وتم عرضها مرةً واحدة ولكنه بعدها خضع للتصنيف، صُنف شيوعيًا وأنه من الخلايا النائمة التي يفضل أن تكون رهينة سجن أفكاره أو السجن عمومًا.

- ماذا تكتب؟

- العمدة.

- أي عمدة، العمدة في ظل الثورة أم العمدة أيام الملكية؟
بعد أن ضحك ضحكة طويلة أعقبها بضراط أطول من فيه:
- مفيش فرق كتير يا صاحبي.. العمدة زمان هو عمدة النهارده، كل واحد فيهم يهمه أن يستعبد الفلاحين الغلابة، وكإنهم مكتوب عليهم الشقا طول عمرهم، ولسان حالهم بيقول يا ريتك يا أبو زيد ما غزيت.
- في عرضك يا حبيبي عايزين نقب على وش الدنيا، اكتب حاجة تمجد النظام وشوية فرفشة وتلعن سنسفيل اللي مشيوا وكلوها والعة.
يومها صمم على رؤيته وكتب، كتب كلامًا يوقع اللقمة من الحنك، بلى.. هذا حقيقي موجود، عندما جلسنا نقرأ ما كتبه معًا:
«عمران أبو النسر فلاح ابن فلاح، بيدفع من زمان وأبوه قبله وجده من يوم ما حفروا قناة السويس، وراح زي كل الغلابة الجهادية ودفع روحه ودمه، ولسة لغاية النهارده سنه بيضحك، يا سلام لو كَل حِتّة زفر وحبس بكوباية شاي سوداء تقيلة وقعد يتسامر طول الليل على المصطبة، أبو النسر الحاجة الوحيدة اللي طلع بيها من الدنيا إنه اتعلم في الكُتَّاب وبقى يقرأ ويكتب زي البربند، لما يحط القلم الكوبيا بين صوابع إيديه ويكتب بالخط الرقعة خط مايكتبوهشي خريج الجامعة النهارده، لكن خواف والخوف راكب جتته زي العفريت مابيفرقهوشي، قاعد على المصطبة قدام البيت وكافي غيره شره زي ما بيقولوا، وربنا كان رازقه بقرشين جاب كام سيجارة فرط وولع واحدة واستمخ وبقى آخر انبساط.

مراته ضربت بالصوت، اتنطر عمران اللي كان قاعد على المصطبة في أمان الله، فز ونط وجري على مراته جوا الدار.

- خير يا ولية فيه إيه؟

سحبته من إيده ودخلته الحوش، هو يسألها وهي مجرجراه وبتلطم:

- خير يا ولية فهميني.

ولعت اللمبة الفلاحي أم شريط النار اللي بيسموها الصاروخ وراحت تقول له:

- عد الوز والبط شوفهم كام يا أبو النسر.

يعدهم يلاقيهم ناقصين جوزين بحالهم، كل يوم الوز والبط بيروحوا الترعة ويعاودوا تمام التمام، بيريحونا من الأكل، وعارفين طريقهم بييجوا جري على البيت وهما فرحانين ومزغططين. أبو النسر سحب عكازه وطلع ناحية الترعة يشوف إيه اللي حصل، يمكن الوز نسي روحه وسرح وفضل جوا المياه لغاية الليل ما ليل عليه وماعرفش يرجع. مشي أبو النسر على شط الترعة وعكازه في إيده وعينيه بتقلب في سطح الترعة، الراجل مش سامع لا صوت وز ولا بط، بيفكر يا ترى ممكن يروحوا فين الساعة ديا؟ هب ولقى واحد صاحبه مايفرقش عنه كتير في الفقر والهم اللي حاطط عليهم، سأله بيعمل إيه، الراجل قال له الحكاية، حكايته ماتفرقش عن حكاية النسر كتير، يعني فقد تلات فرادي وز هو كمان، طلعوا ومارجعوش مع إخواتهم، وأهوه بيدور يمكن يعتر فيهم، ليلتها النوم فارق عينين أبو النسر، راح يطقس ويسأل هو كام واحد وزهم وبطهم مارجعش، حتى

صاحبه اللي قال إن تلات فرادي وز مارجعوش تاني يوم أنكر كلامه وقال لقيناهم، يحلفه أبو النسر والراجل يحلف ويتقطع إنه لقيهم ويداري وشه الناحية التانية، الكدب باين في عينيه، طب لقيتهم فين، يحلف بإنه لقيهم في البيت ومراته كانت غلطانه في العدد، أبو النسر لسانه فالت ومابيقعدش جوه خشمه، وكل البشر في البلد عارفين الكلام ده، قالوا أن جسمه نَحَّسْ وخد على الضرب من العمدة أو من الغفر، ماحدش قال له الحقيقة، الغريب إن الرجالة جايز تسكت وتنام على الظلم لكن حريم بلدنا مابيستحملوش يسكتوا كتير، تاني يوم وفي ميتم الحريم كل واحدة بتبكي على حالها مش على الميت اللي جاية تعزي فيه، أول ما تيجي فرصة يحكوا عن حالهم واللي جاري، أتاري كل واحدة منهم متعبية وساكتة بسبب الوز والبط اللي راح ومش عارفين له سكة، واحدة خبيثة ميلت على ودانهم وقالت لهم:

- أصل العمدة بيبعت الوز والبط للبيه الظابط والمأمور والذي منه.

الحريم صرخت بعلو صوتها على الميت وفي الحقيقة الصراخ والعويل على الوز والبط، مرات النسر سمعت الكلام من هنا وحلفت براس أبوها لتقول لجوزها، طبعًا الكلام زي النار بيسري وصل لودان العمدة، العمدة بجلالة قدره ماكدبش الخبر وقال إنه أمر الغفرا يقبضوا على البط والوز؛ أصلهم نزلوا أرض العمدة وبوظوا الزراعة.. والخضار بقى مايساويش تلاته أبيض واللي مش عاجبه يخبط دماغه في الحيط، وحلف بإنه ومن النهارده كل بني آدم هيطلع وزه وبطه للترعة عليه غرامة، ودي زي مايشوفها

ويقدرها سيادته، ويمكن يصادر كل البط والوز اللي بيمشي على شط الترعة».

الفكرة كانت جميلة، وأحلى ما فيها (عمران أبو النسر) وطول لسانه، يا لإبداعه عندما يكون رائق البال، ويكتب ونقرأ معًا وأنا لا أمسك نفسي من الضحك.

«في بيت عمران أبو النسر وحوار بينه ومراته زي العسل، الراجل بيلاغيها ويقول لها إن الليلة دي ليلة الجمعة وليلة مفترجة، وهي تحلف براس أبوها إنه ما هيقرب منها وحتى لسانها ما يخاطب لسانه، والمصيبة تقول له:

- روح اتفالح في اللي أخد وكل وزِّنا وبطِّنا، ده أنا لو كنت راجل كنت عملت عمايل.

صاحبنا يترجى فيها ويقول لها بلاش صوتها يعلا العيال نايمة، وهيه ودن من طين وودن من عجين، ولا سامعة كلمة من كلامه، يقولها:

- ارضي عليا الليلة دي وشوفي بكرة أنا هعمل إيه، أنا هجيب لك عاليها واطيها بس انتي ارضي عليا.

وبرضه العند راكب دماغها ومش موافقاه، حتى إنها عايرته بشنبه اللي مربيه وفرحان بيه، الراجل كان هيفرتك من جنابه وكل شوية يترجى فيها، وسابته يخبط راسه في الحيط وقعد يكلم نفسه، وهيا ولا هيا.. الكسلانة راحت تنام ويا الأولاد، صاحبنا قعد يفكر هيعمل إيه؟

قعد عمران أبو النسر يكلم نفسه: "يا ترى أشكي مين لمين؟، لو شكيت الغفر أشكيهم للعمدة وهو اللي أمرهم، طب أشكي

العمدة لظابط النقطة؟ وه! ما الظابط كل يوم والتاني عند سيدنا العمدة بيتعشى بزفر ومية مية، طيب أشكي للمأمور؟ طب إزاي ما بيقولوا إن العمدة بيبعت له وز وبط ورومي كمان، مفيش غير إني أكتب شكوى باسم فاعل خير يمكن يهتموا ويعملوا حاجة، أوجهها للبيه المأمور، طيب أقول لمراتي علشان ترضى عني، لا لا دي مرة بلغة قديمة وخشمها شغال عمال على بطال، الموضوع ده هخليه بيني وبين نفسي ومش هجيب سيرة حتى لروحي لحسن تفتن عليا".

كتب عمران اللي قدره عليه ربنا، فند كل حاجة وبخطه الحلو وصف إزاي الغفرا بيلموا كمان الزبدة، فارضين إتاوة على كل بقرة وجاموسة بتولد في البلد، حتى الغنم والماعز عارفينها بالراس، وإحنا لازم نرفع شكوتنا ونرفع راسنا زي ما قال كبير البلد وريسها: "ارفع رأسك يا أخي"».

وكان المشهد التالي:

«العمدة طالب عمران في الدوار، الغفير يأمره أن يتحرك في التو واللحظة للدوار، الغفير كل ما يحاول عمران يستفهم منه السبب إيه، مفيش في خشمه غير:

- والله ما هتجيبها البر يا أبو النسر، سنتك سوخة يا ابن الناس.

يتمسكِن ويسأله عن السبب، الغفير يدفعه قدامه ومراته ترقع بالصوت وراه، يدخل على العمدة، يدي التحية لأبوه العمدة:

- خدامك يا سيد الناس، هو أنا حصل مني حاجة لا سمح الله يا أبويا العمدة؟

العمدة وهو بيهش الدبان بالمنشة يقول له:

- والله يا ابني علمي علمك، أصل البيه المأمور عايزك.
- طيب ليه هو أنا عملت حاجة تخليه ياخد على خاطره مني؟
- العلم عند الله يا عمران.
وبعد أن يصمت العمدة شوية:
- أصل البيه المأمور سأل مين أحسن واحد في البلد يكتب بالخط الرقعة، أنا علشان بحبك وانت ابن حلال مصفي وبقك ماتطلعش منه العيبة قلت له عندنا واحد مالهش مثال، واتكلمت عنك بالخير؛ أصل أنا بحبك لله في لله يا واد يا عمران.
بعد أن يلطم عمران على وجهه:
- يا سيدي العمدة أنا مش متعود على الناس الكبارة دي، في عرضك مش عايز أروح له.
- يا بني ماتخفش، ده انت أمك داعيالك من قلبها.
يطالب العمدة بأن يرد على المأمور بإنه مات وشبع موت، فيقول العمدة:
- برضه ده طلب يا عمران، عايزني في آخر أيامي الناس تقول عليا إيه؟ ولا واحد زي المأمور يقول عليا كداب؟
العمدة نشِّف دماغه وتاني يوم اتنين غفر سحبوه على ملا وشه للمركز، وشه لونه أصفر من الكركم وجتته لو ضربت فيها سكينة ماتشرش نقطة دم، جتته كلها بتترعش، فضل مرمي والغفر حارسينه لغاية ما يفضى البيه المأمور».
يومها كتبنا مشهدين رائعين من الحكاية، أحلاهما مشهد مقابلته مع المأمور:

«دخل على المأمور وهو مش قادر يسند طوله، ماكانش ناقص غير إنه يتقلب على أرضية الغرفة، المأمور يقول له:

- اقعد.

يتربع ويقعد على الأرض، يقول:

- اقعد على الكرسي.

يبص للمأمور ومش مصدق، يسأله:

- انت عمران أبو النسر، انت مواطن صالح يا عمران، انت اللي كتبت الشكوى اللي جت من مجهول.

يقسم ويتقطع إنه عمره ما كتب شكاوى، المأمور:

- يبقى إحنا غلطنا، لازم نشوف مين البطل اللي كتب، أصل إحنا يا عمران زي ما قال ريسنا "ارفع رأسك يا أخي"، كل أملنا إن الناس تتكلم وكل واحد يقول اللي في مرامه حتى لو كان ضد مأمور المركز، إحنا الكبير فينا خدام للصغير، انت راجل طيب يا عمران، اقعد براحتك على الكرسي.

المأمور بيولع السيجارة ويبخ الدخان من خشمه ومنخاره، وكأنه افتكر:

- اوعى تكون بتدخن يا عمران.

يشير بأنه لا يدخن، لكن المأمور يحاول أن يداعبه قائلًا:

- يا خلبوص انت بتدخن.

ويعطيه سيجارة ويقوم بإشعالها له بنفسه، ويقسم بإنه كان ناوي يكرمه إذا كان كتب الشكوى، المهم في نفس اللحظة يدخل جندي ويؤدي التحية العسكرية للمأمور حتى يكاد يقع عمران من فوق الكرسي، يبلغ المأمور بأن الدورية وصلت وهما جاهزين

ليؤدوا التمام، يخرج المأمور والعسكري، يجلس عمران بمفرده يتلذذ بالتدخين، "يا سلام راجل ابن حلال، يا سلام على الأخلاق، علِّينا ووطي نفوسنا يا رب، كان منى عيني ييجي سي العمدة حرامي الوز والبط ويشوفني وأنا قاعد مع المأمور راس براس، قاعدين نحكي، يا سلام على كلامه اللي زي الشهد اللي بيبخه، يا ريتك تسمع يا سيدي العمدة وهو بيقول: [إحنا الكبير فينا خدام للصغير]، ولا: [انت مواطن صالح يا عمران]، أيوه أنا مواطن صالح وأقدر أدِب صوابع إيديا في عين اللي يقول لأ"، يجلس براحته على الكرسي، يهم بأن يضع ساقًا على ساق، ينظر لحذائه المهترئ، ويقول لنفسه: "بلاش، آه يا مين يجيب ليا العمدة وشيخ الغفر وكل الغفرا ويشوفوا أنا قاعد إزاي".

يدخل المأمور، يجلس خلف مكتبه، ويردد:

- شوف يا عمران الظاهر إحنا غلطنا في العنوان، إحنا فكرناك المواطن الصالح اللي كتب، انت ممكن تتفضل بألف سلامة ولو عايز حاجة تعالى لوحدك واتكلم.

ينحني بقوةٍ ويستعد للخروج ولكنه يتردد، وهو يقول:

- شوف يا سيدي البيه الكدب خيبة.

وفي توسل بالغ يصف للمأمور ما قاله ويحاول أن يثبته بالفعل، يطالبه المأمور بالجلوس، يوصف العمدة بإنه شيخ منصر كبير، وكيف يجمع الوز والبط والزبدة من الفلاحين ومن يمتنع يا ويله يا سواد ليله، والناس كلها بتكش وتبقى في نص هدومها ومافيش واحد يرفع عينه ويوافق، ياخدوا اللي عايزينه وشايفهم ومايقدرش ينطق بكلمة.

- عارف يا معالي الباشا طلب خروف من واحد ظروفه مساعداه، وبالفم المليان قال إن ده هدية للبيه المأمور، صاحبنا حط رأسه برأس العمدة وقال لأ، تاني يوم الزريبة بتاعته يا ولداه الحرامية نقبوها.. وبدل الخروف خدوا خروفين وبقرتين، وأدي وش الضيف يا باشا، ما أصل العمدة سايبهم يسرقوا ويمرحوا وله نصيب، أنا بقول لسيادتك هو يعمل العملة ويحطها في قرابيزك، يعني انت السبب في كل المصايب.

يحبس المأمور ضحكاته، ويردد آخر كلمات عمران:

- بقى أنا السبب في كل المصايب؟

أبو النسر:

- ده مش كلامي أنا يا باشا.

يطالبه إنه يكمل حديثه، يتكلم ويحكي بالتفاصيل والمأمور كل شوية يقول له:

- انت مواطن صالح يا عمران أبو النسر، إحنا محتاجين لأمثالك.

وأبو النسر يبخ دخان وكلام، حتى حكاية البت خدامة العمدة اللي كانت بنت بنوت واللي عملوا فيها العمدة، ولا اختشى ولا خاف ربه، وفي الآخر جوزها لواد راعي حداه، لا حول ولا قوة إلا بالله.

طلب المأمور عسكري الخدمة اللي قدام الباب وأمره ياخد عمران أبو النسر للبوفيه، أحلى كوباية شاي لعمران لغاية ما يكلم تليفون للبيه مدير الأمن، منظر عمران وهو ماشي منفوخ ويقول لنفسه: "يا أرض اتهدي ما عليكي قدي"».

كتبنا هذا الفصل وكنا نمثله ونحن نكتبه، ونغرق في الضحك، ويأتي المشهد الذي بعده:

«دخل عمران أبو النسر لمكتب البيه المأمور، لقى العمدة قاعد قدام المأمور وحاطط رجل على رجل كمان وبيشرب من فنجان القهوة، اتلبش في جتته وكان عايز يخرج بره تاني، لكن المأمور أمر ورجع ووقف قدامهم وجتته بتترعش.

- انت اعترفت يا عمران

- الكدب خيبة يا معالي الباشا، أبويا العمدة شجرة مضللة على الكل، ماحدش يقدر ينكر فضله إلا ولاد الحرام.

يحاول أن يميل على يد العمدة ليقبلها، فيدفعه العمدة ويواصل المأمور:

- العمدة بيأمر الغفرا يلموا البط والوز وكمان الزبدة مش كده؟

- يا سعادة الباشا وذنب سيدي العمدة إيه؟ إحنا نستحق الضرب بالبلغة القديمة ويبقى قليل علينا، طيب نسيب الوز والبط يمرح ويلعب في الترعة وفي الآخر ينزل زرعة العمدة، أي حد مكانه يضرب بالنار، ويأخد الوز والبط، حرام يا معالي الباشا دا لولا قلبه الطيب ماكنتش وزاية ولا بطاية تعرف طريق الترعة، وأما حكاية الزبدة فدي دليل على وطنيته وحبه للبلد، تخيل سيادتك البلد كلها بهايم والزبدة على قفا مين يشيل، الناس من كترها بقى يرموها في الترعة، الترعة بقت زبدة، وده له تأثير على أهم محصول في البلد القطن يا باشا، القطن نيجي نجمعه بقى ناعم ولا غزل البنات، المحصول القومي للبلد هيضيع، عارف يا باشا يمين ولا ليك عليا يمين المرة زبيدة العِفشة راحت تغسل هدمات ولدها في الترعة، الجلابية بتاعت الواد الأهبل ابنها

اتلحوست بقت كلها زبدة، الولية كانت لما يحب ابنها ياكل بيض مقلي، تعصر حتة من الجلابية وتطقش بيضتين عليهم!
العمدة يودي وشه بعيد وهو بيداري ضحكاته، بينما المأمور يواصل:
- ونقب البيت؟
- بص يا بيه أنا قلت كل اللي عندي والروح ما يخدها غير اللي خلقها، أنا عارف أن لساني طويل ويستحق قطعه، واحكموا باللي انتوا عايزينه، ويمين بالله الولية مراتي لو ربت بط ولا وز تاني لتبقى طالق بالتلاتة، رقبتي تحت سيف جنابك واحكم.
ويخر ساجدًا وباكيًا».

صاحبي صاحب القضية

كان كل ما يتزنق يقول:

- أنا صاحب قضية.

سافرت ورحت وجيت وكسبت كتير، وهو على حاله لم يتغير، بيكتب ويتكلم ويقول، لسة حالمان بإنه يغير الدنيا من حواليه، الدنيا اتغيرت وبقى الكل بيدور على إنه يقب على وش الدنيا، الانفتاح في كل الأشياء، الثقافة والتعليم، أفكار جديدة غزت البلد كلها، الناصح يجاري الجو، الجامعة ومسرح الجامعة شبه أُغلق؛ فالجماعات وقفت بالمرصاد لأي عمل مسرحي، الجنازير خرجت وكله كمش، ممكن تقول إن سياسة البلد اليومين دول ممكن تقول من غير كسوف: "سيبوهم دول عيال أهاليهم ماربوهمشي، وخليهم يخبطوا في بعض وإحنا نداوي المتكسر منهم والوزير يشجب هذه الأعمال".

والمسرح التجاري بقى عشرة على عشرة، الرقص لم يتوقف على الفنانات المحترمات، لم يعد حكرًا عليهن؛ فقد تبارى الفنانين في هز مؤخراتهم وفازوا على السيدات، وطبعًا كله تحت مسمى: "فن وثقافة"، والسيد الوزير واعي وواخد دكتوراة في اللعب على الشعب، يعرض أفكاره اللي ماتخرش المياه على كبير البلد، يوافق من غير إحم ولا دستور، تتلخص الفكرة إنه يسيب واحد ولا اتنين يتكلموا براحتهم، يقولوا ما قال زيد في الخمر، ينتقدوا كل الأوضاع في البلد والسياسات القائمة، يثيروا موجة من الضحك على الحكومة وما شابه ذلك، وعروضهم

ليلاتي شغالة وزي الفل لا تتوقف، وقد يمتد عرضها لشهور وربما لسنوات، طبعًا إن دل هيأكد على الحرية التي يتمتع بها الشعب والمبدعين كمان، لكن لو حد غير المحددين من قبل الكبير والوزير هتبقى سنة اللي خلفوه زفت ومقطرن بقطران، يشرب من كيعانه وممكن مايشوفش شمس بكرة، والسجن في الحالة دي أولى بيه والتهمة جاهزة ومترتبة، العبيط يعمل فيها دكر ويقول أنا هكتب اللي في دماغي، بقولكم عبيط لازم يكتب اللي في دماغهم وبس، مش عاجبه يخبط دماغه في الحيط وأعلى ما في خيله يركبه، وإن شاف الشمس النهارده بكرة مش هيشوفها.

- أخبارك؟

- فل والحمد لله، بس دماغي مش مريحاني.

لم أتمالك نفسي من الضحك ورددت بسرعة:

- في عرضك أنا جاي أجازة وهعاود.

يضحك بدوره ويواصل:

- دماغي أنا مش دماغك انت، أنا فكرتك تحب تسمع حاجة جديدة.

كانت لقمة حلوة قسمناها سوا، أنا عارفه وفاهمه من النوع الفقري اللي ممكن يموت من الجوع ولا يقول، بعد العشوة الحلوة والحبس بقزازتين بيرة مشبرين، قعد يمدح فيا ويحلف بالله إنه محروم من الأكل الحلو والصحبة الحلوة، رحنا شقته اللي ما زالت على حالها من البهدلة والكتب وبقايا الجرايد اللي مالية كل حتة، نفضت المكان اللي هقعد عليه أصل التراب بالكوم، يضحك ومن غير اهتمام، يقول:

- هدوقك كوباية شاي من بتوع زمان.

وفعلًا أنا لا أنكر إن أحلى كوباية شاي بتطلع من تحت إيديه، وكإني سكرت ولقيت روحي سلمته رأسي وراح يحكي من غير توقف:

- "البلد هتطلع من عنق الزجاجة"!

تخيل يا صاحبي، بقى الكل بيردد الكلمة وكإنه مسطول ولا كإنه متعمد يفضل مسطول من غير خمر ولا حتى عرق بلح، كل واحد لسانه بيقول المعونة جاية، المعونة من أمريكا من بلاد العم سام، مفيش بني آدم هيحس بالفقر، الناس اتخبلت وكله منتظر الخير اللي جاي بالزوفة، الانفتاح بشرة خير والمعاهدة هي باب السعد اللي هيفرش البلد كلتها، تحس إن الناس ماشية بتخبط في بعض، مش ناقص إلا إنهم يرقصوا في الشوارع، هو الرقص مش عيب، بس المهم إن إحنا مانناساشي إننا بلد إسلامية، مفيش مانع نرقص بس بحشمة؛ يعني الستات تتحشم والبنات اللي كانت بتلبس الميني والميكروجيب ذنبهم على جنبهم، والجامعة ترفع شعار زي الدولة كلها وكبيرها ما بيقول: "دولة العلم والإيمان".

المهم راح يوصف حال البلد وجرجرني وأنا مش دريان، وبدأ يوصف الحكاية وعلينا أن نضع الحوار الملائم الذي يتماشى مع تلك الأحداث.

قال ولا يقول اليوم:

- شوف يا سيدي وما سيدك إلا النبي عليه الصلاة والسلام، صابر دا واحد من الناس المنسية في بلدنا، من الناس اللي ربنا يوم ما يفتح عليهم ويجيبوا حتة لحمة بيقفلوا الباب بالضبة والمفتاح يخافوا حد يطب عليهم، أربع ولاد وبنت ولا ليهم شغلة

ولا مشغلة، بس لسانهم طويل بالكدب، يعني يوم ما يدوقوا اللحمة يحسوا إنهم دخلوا الجنة، أبوهم زهق منهم ومن عمايلهم، ساعة ما يوزع اللحمة كل واحد منهم يقول إنه ماخدش عشمان في حتة زيادة، مرة من قعر الحلة كل ما يدي الواحد منهم حتة اللحمة يعلمه في قورته بالهباب، برضه مانفعشي، ليه؟ الواحد منهم يرمي اللحمة في خشمه ويمسح السخام من فوق قورته ويمد إيده مرة تانية، وساعات تتقلب ساعة الأكل معارك بس تفطس من الضحك، في الآخر اتفق مع الولية مراته إنها تقف على الباب، والعيل اللي ياخد منابه يطلع بره البيت وأمه تقفل عليه، وكان دا أفضل الحلول.

توقف عن الحكي وبص ليا وأنا مش ماسك روحي من الضحك وقال:

- إيه رأيك في العيلة دي؟ طبعًا عيلة مالهاش مثيل، كلام حلو بس إزاي ده هيتجسد على خشبة المسرح؟

- وهو همك كله كتابة عمل مسرحي؟

ضحك وقال:

- يا حبيبي مش ده المهم، انت رأيك إيه؟

نفسي أقول له إن هذا محض خيال ومفيش حاجة بالصورة دي، أفتكر حالي وحال الناس قبل ما أسافر بره، صح دا فيه أسوأ من كده وربنا يكون في عون الغلابة من البشر، بلدنا الفقر واكل جتت كتير من البشر فيها، الغريبة إنه رغم كل ده الضحكة مش مفارقة وشهم، اتفقنا في هذا الشأن ونحاول نفسر إن دي فلسفة خاصة بالشعب، طبعًا هو عمل المقدمة دي كلها ولسة

مادخلش في الموضوع، شفط شفطة طويلة من الشاي بصوت مسموع وبص ليا وكمل:

- بلدنا قرية صغيرة والحاكم بأمره سيدي العمدة، والناس اللي يحك في جلده لازم يستأذن أبوه العمدة، دي الأصول واللي يتخطى الأصول يا ويله يا سواد ليله، عسكر العمدة اللي هما الغفر ينتظروا السقطة واللقطة، يقوموا بالواجب مع المجنون اللي خرج من طوع القانون، هينسى اسمه واسم اللي خلفوه، صابر وعياله أفقر خلق ربنا ولسانهم متبرئ منهم، كدابين من يومهم، ولسانهم يتكلم زي البربند وفاكرين روحهم مثقفين وفاهمين؛ أصل فيهم عيلين خدوا الدبلوم، الغريبة أن العيلة دي بتتكلم عن المعونة اللي جاية من أمريكا وكإن أمريكا من باقي أهلهم، العمدة من كتر كلامهم قال يخرسهم ويحط في خشمهم بلغة قديمة، مطلوب منه إنه يكتب لمنظمة باعتاله عن أسماء الغلابة من البلد، قلب الموضوع في رأسه هو والنائب بتاعه وشيخ الغفر، قالوا ممكن يكون خير هيوصلنا ده مؤكد، وإن كان شر هيتقلب على رأس صابر وعياله وتبقى شوطة وخدتهم واستريحنا منهم ومن قرفهم، اتفقوا وكتبوا صابر وعيلته.

ينظر إليَّ وكأن لسان حاله يسأل: أكمل ولا كفاية؟ لا أنكر أنا مبسوط ومنتظر ما تسفر عنه حكايته وموقفه من عيلة صابر، لا إراديا سألته:

- وبعدين؟

شعرت بأنه استرد بشاشته وعاد يقص بتمهل وروية ويطالب إننا نسجل ما سيكون في حوار مسرحي:

- وفي يوم من الأيام وبعد العشاء، وصلت سيارة نصف نقل محملة عن آخرها لدوار العمدة، استقبلها الغفراء ودخلوا بقائدها للعمدة، سلم السائق للعمدة خطاب، فضه العمدة وأعاد قرايته أكتر من مرة واستغرب ما جاء فيه، تقول الرسالة إن هذا جزء من المعونة الأميريكية وأبناء العم سام لفقراء مصر، وإن مؤسساتها الاجتماعية العاملة في مصر حددت مين هي العائلات والأسر الأكثر احتياجًا وسترسل لهم تباعًا من خلال فروع المؤسسة المختلفة.

توقف عن الحكي ونظر إليّ متسائلا:

- ما رأي سيادتكم فيما يحدث؟

نتساءل عن دور منظمات المجتمع المدني الممولة خارجيًّا من تلك المعونة ودورها الحقيقي في المجتمع المصري، نقلب في أفكارنا ونبعثرها وكلها تؤكد حقيقة واحدة لا شك فيها إنها بمنزلة عيون لمن يمولونهم، يغضب بشدة ويتحدث عن التبعية المباشرة وغير المباشرة، أحاول أن أخفف من تذمره البالغ فأدعوه إلى أن يستكمل باقي روايته، لكن بعد أن يمنحنا كوبين من الشاي المعتبر، يبتسم ويوافق وهو يفهم تمامًا ما أرمي إليه.

- سيدنا العمدة الحاكم بأمره في البلد عليه أن يعرف ماذا تحمل تلك السيارة لبيت صابر، العمدة حريص على أمن البلد طبعًا، مفاجأة: أشياء كثيرة لا حصر لها من ملبوسات وحتى أحذية متنوعة ومأكولات محفوظة وأجهزة منزلية، يضرب كف بكف، يسأل نفسه: وهل يستفيد صابر وعياله من هذه الأشياء؟ يقلب كل الأشياء ويحجز لمنزله وأهل بيته النصف، ومن ثم يتجه

للنائب ليرى ماذا يفعل فيما تبقى، ولا هو الكسلان يحط إيده على نص الباقي، ومن بعده شيخ الغفر وهو أيضًا مش أقل ممن سبقوه فيحتفظ لنفسه بالنصف، ولا يتبقى في السيارة سوى أقل القليل، يملأن قفتين بهما وينطلق بهما غفيران عشان يسلموها لصابر، في الطريق كل من الغفيرين يفكران وفي صوت واحد يقولان: "القفة أم ودنين يشيلوها اتنين، وصابر أخونا في الإنسانية، وكمان إيه عرفه باللي جبناه؟"، وبالفعل مجرد أن وصلا لبيت صابر، تركا له قفة واحدة مملوءة، ومجرد أن هما بالمشي الواد الفالح الكبير ابن صابر سألهم: "إيه هو ده؟"، يقولوا له: "احمد ربنا يا ابني خير وربنا بعته ليكم، والعمدة ماكدبش خبر وبعتنا بيه، انتم ماتستحقوش وانتم أصلكم مش وش نعمة، إحنا اللي كلفنا بيه العمدة عملناه، وانتم مطرح ماتحطوا راسكم حطوا رجليكم"، وجم يمشوا ولد صابر صرخ وقال: "وإيش يضمنا إنها مش متفجرات؟ وممكن يكون ملعوب عاملينه علشان يتخلصوا مننا"، الغفير ييجي شمال الواد ييجي يمين، "طب وليه يا ابني العمدة يعمل كده؟"، أتاري الحكاية إن الواد الوسطاني لسانه متبري منه برضه، بيتكلم ليل ونهار عن المعونة الأمريكاني وكل الناس هتستفاد من وراها، الواد شعبان الأهطل يسأله: "إزاي الواحد يخلي أمريكا تنزل حداهم؟"، المهم خد وادى معاه في الكلام، الواد الأهطل اتسحب من لسانه وقال له: "طب ينفع الواحد يبين حتة من كتف أخته وأمريكا تشوفها تتهبل؟ أصل أختى بيضة ولا فلقة القمر، تعمل لهم عملية إغراء وييجوا وينزلوا حدانا"، الواد ابن صابر ولا هو الكسلان قال له: "بص يا أهطل اللحمة العريانة في أمريكا على قفا مين يشيل، مش

منتظرين حتى أختك تطلع عريانة ملط"، الواد الأهطل فضل يقرر فيه، فقال له: "شوف يا أهطل، أمريكا طيرانها شغال ليل ونهار بيسجل كل حاجة ولهم منخار بيشم اللي في بلاد واق الواق، أهم حاجة بتدور عليها البترول، عارف لو شمت ريحة بترول في بيتكم هتنزل وهتستولى على بيتكم وانت وأمك وكل عيلتك هتبقوا أمريكاني مية مية، بس لازم يشموا الريحة في الأول"، الواد الأهطل سمع كلامه من هنا وجري على بيتهم، سحب صفيحة الجاز ودلقها على رأس أخته ووقفها في الشمس، أمه ضربت بالمخ: "الواد الأهبل هيشعلل النار في أخته"، الدنيا اتقلبت والناس بقت على عينك يا تاجر وترش الملح ما ينزل الأرض، والغفر جم قبضوا على الواد والواد مايتبلش في بقه فولة، قال لهم أن ابن صابر هوا اللي وزه علشان أمريكا تيجى حداهم، يومها العمدة كتر خيره وصف ابن صابر بالإرهابي وسجنه تلات أيام وشبعه ضرب، وبقى فيه تار بايت بين العمدة وصابر وعياله، يبقى هييجي الخير إزاي من ورا العمدة؟ لازم صابر وعياله يحطوا إيدهم على قلبهم ويخافوا من عمايل العمدة، رموا الشيلة برا باب البيت وحلفوا ما هتدخل من عتبة البيت، يحاول فيهم الغفرا، راسهم وألف سيف ما ممكن.

طبعا جلسنا كالمعتاد نتداول في الحوار القائم، بل كتبنا منه كتير، حاولت إن إحنا لا نشير من قريب أو بعيد على حكومة بلدنا الموقرة، كل ما يحاول أوقفه وأقول له:

- في عرضك إحنا مش غاويين بهدلة، كفاية اللي حصل لك.

المصيبة يضحك ويقول:

- إيش ياخد الريح من البلاط يا عم!

تاني يوم قلت له:
- والله تستحق أكلة متينة تعمر دماغك، انت امبارح بسطتني من حكاويك، وأنا النهارده ناوي أأكلك أكلة ترم عضمك يا صاحبي.
وقد كان، فكرت الحكاية خلصت لكنه قال ليا:
- عارف المؤسسة اللي قامت بتوصيل الحاجة؟ عايزة تشوف رد فعل المعونة على الغلابة في البلد وتسمع من خشمهم إزاي يحييوا أمريكا ومؤسساتها اللي جوه البلد، جم البلد ومعاهم طبعًا مصوريين وكتاب وتلفزيون، أصل دول بيبصوا في اللقمة اللي بيدوها للغلبان ومش بيقولوا بالهنا والشفا، دول بيقولوا بالسم الهاري، مش نطعمكم لوجه الله ولا نريد منكم الشكر أو العرفان.. ما ينفعش، ده مش في قاموس حياتهم، أصلهم ما بيدوش حاجة لوجه الله. يبقى الدنيا اتقلبت في دوار العمدة، فهم العمدة الموضوع.. المصيبة إن فيه عربية من المركز وفيها كمان المأمور جايين فرحانيين وكل واحد منهم عشمان يمكن ينوبه من الحب جانب، طب يعمل إيه العمدة في المصيبة اللي حطت فوق راسه؟ لم الحاجات من بيته وعياله بعد ما قسموها، وقال لنايبه وشيخ الغفر: "الحقوا قبل ما نتفضح لموا كل حاجة وستفوا العربية ويا دار ما دخلك شر".
كان آخر يوم ليا، قضيناه سوا وكتبنا أغلب فصول المسرحية، وطلبت منه إنه ما يزودهاش؛ أصل الموضوع فيه مساس بأمن البلد، أيوه أنا عرفت أنهم بيبعتوا معونات، أغلبها تروح لموظفين المؤسسات التابعة ليهم، والنص للحكومة ونص النص لدلاديل الحكومة لغاية ما يتبقاش غير شوية بتوع لا راحوا ولا جم، وكل

شوية يذلوا البشر بإنه لولا المعونة اللي جت من الست أمريكا كنا مالقيناش الأكل ناكله، الله يخرب بيوتهم، اتفقت أنا وهو والمسرحية بقت حاجة من الكوميديا السودا.

سافرت ولعب شيطانه في اللي كتبناه سوا، ولعن سنسفيل الحكومة وطلاب أمريكا، طيب مين هيقدر ينتج عمل زي كده، بدل ما يوافقوا على عرضه، عرفت إنهم قاموا معاه بالواجب، وخد له كام شهر سجن، ومفيش واحد كتب كلمة حلوة في حقه.

عندما حضرت في نهاية العام كانت المفاجأة إنه في المستشفى، ولأجل الأمانة رغم أنه لا يملك أي أموال فوجئت بإنه نزيل مستشفى استثماري حديث، ذهبت مباشرة للمستشفى، ظللت بجواره حتى فتح عينيه، تعانقت دموعنا.

نظر إليَّ وقال:

- أنا حاسس إن المستشفى دي غريبة عليا، بقولك إيه.. هما الظاهر طمعانين فيا، أنا عارف أن كل أعضاء جتتي بقت ما تسويش لا أسود ولا أحمر، يعني نقبهم طلع على شونه وهيخسروا الجلد والسقط.

ضحك حتى أسلم روحه.

لا أنكر أن النقيب جزاه الله خيرًا بمجرد أن علم بحالته أمر بنقله لهذا المستشفى وعلى نفقة النقابة نفسها، وكثيرون قاموا بزيارته.

مبدع في طور التكوين

صديقي الأديب الكبير.

هو صاحب اسم معروف حاليًا في سماء الثقافة العربية عمومًا، بسيطٌ متواضعٌ شغوف بالحياة ناقم على الأوضاع الثقافية المتدهورة، رؤيته مقنعة لمن يستمع لغاية الاستماع أو التعليم، أما من يريد أن يدخل في مناقشات بيزنطية أو سفسطائية ويتصنع العلم ببواطن الأمور فإنه يترك له الحبل على الغارب، هو لا يهوى وجع الرأس كما يقول، فإن بدا الشخص من تلك النوعية وتلك عينة من مدعي الثقافة تتكلم في كل شيء وأي شيء وهي لا تعرف إلا اللمم، أما عن العلاقات بين المثقفين وبعضهم فكلما جاءت السيرة مط شفتيه وهز رأسه ألمًا وبدا الحزن جليًا فوق محياه.

قبل أن أنسى هناك فارق في المكانة بيني وبينه، نعم أنا كاتب وهو أيضًا وهذا قياس مع فارق المكانة المحققة لكل منا، ليس عيبًا أن تشير إلى زميلٍ وصاحبٍ استطاع أن يخترق الأسلاك الشائكة حول المثقف المصري عمومًا، لكن لا داعي للحسد، لا داعي لأن تتهمه بأنه كان يمشي على بطنه للوصول وأنه قدم تنازلاتٍ حتى يحظى بتلك المكانة، نعم هناك من كانت طرقهم مفروشة بالورد ولم يستعينوا في الصعود على أقدامهم بالسلم اللامنتهي للوصول، فكان المصعد في انتظارهم وحارس العقار يفتح الباب أيضًا وينحني أمامه، يصل للدور إياه ويجلس مع

المسئول بكل أريحية وثقة، بل أحيانًا يملي عليه ما يود فعله، وآخرون طرقهم معبدة ولا وجود لمعيقات تعيق تقدمهم.

"لا تنس، فكما قالوا: قيراط حظ ولا فدان شطارة".

وهناك من تقبلت السماء دعوات أمه فارتقى وصعد، وأنا أمي ماتت في سن مبكرة، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

«ماتت من كانت تدعو لك».

أنا أسلم بكل تلك الأمور، أنا لا أعرف الحسد وغالبًا راضٍ بما قسمه الله لي، فأنا أحيانا أشعر بالمتعة اللامتناهية بعد صلاة الفجر وأنا أمضي في الطريق مع نسمات كلها العبق والعبير فأستنشق بعمق حتى أصل إلى ضفاف النيل، فأواصل الطريق مستمتعًا حتى تكل قدمي فأعرج على صديقي صاحب محل الفول والطعمية وألقي إليه بتحية الصباح المعتادة، يردها وهو هائم في عمله مع طشات الفلافل والباذنجان والفلفل، يعرف طلبي مقدمًا فيناولني الساندوتشات إياها، ولا ينسى القليل من المشهيات وفواتح الشهية من المخللات ذات المذاق المنعش، أشكره وأمضي إلى قهوتي المعتادة أمام الميدان الكبير؛ فأنا عاشق رصد الشارع بكل ما فيه، مع المتعة في تناول الإفطار ورشفات الشاي الموصَّى عليه والمعروف بثقله وسواد لونه، أظل جالسًا في مكاني لساعة أو ربما ساعتين وأعود أدراجي إلى المنزل.

أنا ممن كُتب عليهم التقلب في الفراش، ليس عن أرق بقدر ما هو تفكر وتفكير في الأوضاع القائمة من حولي، شد ما يحيرني موضوع الثقافة والتعليم والإعلام، أقوم من مخدعي وأجلس على المكتب أحاول أن أخط بعض الأفكار التي تغزو وجداني، لا أنسى

إنني لست الأفضل والوحيد المفكر في تلك القضايا، لكنها مجرد محاولات، ربما تستريح نفسي من عناء التفكير، كوني نسختها وكتبتها، وأيًا كان مصير تلك الأوراق تدق العبارة في رأسي:

"يعني مغسِّل وضامن جنة ياخي"

لكن لا أنسى أن أرد الفضل لأهله، إلى صاحب الفضل في كتابة هذا الموضوع: الأديب الكبير.

من حديثه استلهمت أغلب الأحداث الموجودة في الكتاب، ونسبة الصدق فيها كبيرة؛ بل كبيرة جدًّا، كان هو أكثر صدقًا في حديثه الساخر، ولكنه أديب بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلا يحاول كتابة سخرياته اللاذعة؛ حتى لا يحرج الكثيرين من أصحاب المقامات الرفيعة الكبيرة وممن تقلدوا مناصب يصل إليها الناس بشق الأنفس وبتضحيات مادية ومعنوية، عندما حاولت أن أدفع الحساب أبى بشدة وهذا ليس جديدًا عليه، فالكرم صفة غالبة عليه.

هي مجرد كلمة أثناء الحديث تفوهت بها:

- كيف وصلت لتلك المكانة المرموقة؟

نظر إليَّ والابتسامة تملأ وجهه ورد السؤال بسؤال:

- كاتب تقصد؟

- نعم سيدي.

ضاحكا وهو يقول:

- هل تعلم أن الغالبية العظمى من الكتاب يخسرون عمرهم في تلك المتاهة التي تسمى الثقافة؟ قليلون منهم يخدمهم الحظ فيتواصون ويتكسبون، أما الغالبية العظمى يا حسرة، لو هذا العمر الذي أفناه في الكتابة استغله في تربية وتزغيط الكتاكيت

لاستفاد وكسب من وراء ذلك الكثير من المال، ولأغناه عن التسول من خلال الأدب، لكن في النهاية لا يسعنا إلا القول إنه كل مسخر لما خُلق له.

يرشف القليل من الماء ويستطرد ثانية:

- يجب أن تعلم أن تلك الوظيفة التي تتقلدها هي مهنة من لا مهنة له.

صمتُّ ولم أسأل منتظرًا ما يجود به من حديث، وجملة حديثه شكر وتقدير لمن تقلدوا المناصب الوزارية في الثقافة عمومًا منذ عهد الدكتور (ثروت عكاشة) مرورا بـ(يوسف السباعي)، حتى (فاروق حسني) لم يتخل ولم يرفع يده عن مساعدة كل من أشاروا إليه بأنه شخص مبدع، أو يجيد العمل الثقافي في أي مجال من مجالات الإبداع، وكان طريق فتح باب الرزق له أن يسحبه للعمل في الوزارة أو في أي فرع من فروع وزارة الثقافة، حرصًا على الاستمرارية والمساعدة له في عدم إراقة ماء الوجه كما يقولون.

- لا أستطيع أن أنكر أنني استفدت كثيرًا من وراء هذا القرار، رغم أنني موظف في التربية والتعليم أساسًا، يوم تقدمت لأنال شرف الحصول على وظيفة في الوزارة لم يتوان الرجل الكريم فوافق بسرعة، وتقلدت منصبًا رغم أن راتبه قليل، لكن هناك مكاسب أخرى من وراء ذلك.. أهمها بالطبع أن كل أو أغلب من تقلدوا تلك المناصب يعاملون كمبدعين في المقام الأول، والرؤية العامة تقول إنه ليس للإبداع حدود، فكانوا يحضرون متى شاءوا، ولهم وضع خاص في إصدار كتبهم أو حضور المهرجانات والمؤتمرات في شتى مجالات الثقافة.

يضحك بشدة فأناوله كأس الماء، يبتسم ويشكرني وهو يواصل:
- كان على أن أشكرهم فهم أصحاب فضلٍ ومعروف، أنا اليوم رجل مبدع وأغلال الوظيفة لا تقيدني، أسهر طول الليل وأنام أغلب النهار، ليس من الضرورة أن أبصم في دفتر الحضور والانصراف، لا أنكر لك وبأمانة شديدة، أصبحت الوظيفة التي أتقلدها والمرتب الذي أتقاضاه مجرد إعانة إجتماعية، وعشت على تلك الفكرة ورقيت أيضًا لمنصب أعلى وأنا لا أحضر غالبًا، وأكثر ما يثير الضحك وبعد هذا العمر الذي قضيته في أروقة الوزارة، إنني في يوم لم يأتني النوم، وكان الجو جميلًا فلماذا لا أذهب اليوم للوزارة (أنا في أحد الفروع)، ارتديت ملابسي وتهيأت تمامًا للخروج وكنت أشعر بنشوة موظف عائد إلى عمله بعد أيامٍ طويلة، فانطلقت في سعادة، وكأن الدنيا من حولي تحتفل بأنني أمشي في الشارع. الشارع هادئ وفي قرارة نفسي ذهبت في حوار ساخر من نفسي، لقد علم البشر أنني سأذهب إلى العمل هذا اليوم فأخلوا الشوارع لصاحب الطلعة البهية الذي هو حضرتي، أنفث دخان سيجارتي وأبخه سعيدًا متقلدًا منصب الكبير، حتى وصلت أخيرًا لقرب المقر، المعتاد أن المقر يبدو كخلية نحل ولا يعرف مدخله السكون أبدًا، ولم أرحم نفسي من مزيدٍ من التهكم على ذاتي، فحتى مقر عملي علموا بقدومي فأفسحوا لي الطريق، هناك شيء لا أستوعبه.. هل اليوم الجمعة وهو إجازة بالطبع؟ لا لا أنا متأكد؛ فقد صليت الجمعة منذ يومين في مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها، وليس في الأسبوع سوى جمعة واحدة، أنا متأكد مما يحدث حولي، لم أتناول أمس حتى زجاجة بيرة كالمعتاد، فقد عدت أدراجي فقد كانت جلسة الجريون

تجمع عناصر لا أذكر منها إلا كل خير لكن لهم طريق غريب في الوصول لا أحبذه، إذًا أنا معافى من أي شيء مسكر وبكامل قواي العقلية، (عم صالح) الحارس جالس على كرسيه كالمعتاد أمام المقر يقلب وربما يشاهد بعض الصور في إحدى المطبوعات الخاصة بالوزارة، أقترب ولم أشأ إزعاجه، وبصوت خفيض ألقيت عليه السلام، نظر إليَّ وكأنه تذكرني فهب الرجل واقفًا وألقى المجلة من يده رافعًا يده ورادًا التحية، ضاحكًا سألني:

- لقد غبت كثيرًا وألف حمدٍ لله على سلامتك، هل كنت خارج مصر يا معالي الباشا؟

مددت له يدي مصافحًا، وقلت له إنني لست ممن يدعونهم للسفر، عاد الرجل يسألني عن غيبتي الطويلة، تحججت بالعمل المرهق المكلف به الذي يستنزف وقتي ليلًا ونهارًا، دعى لي الرجل بالصحة والعافية وطول العمر، أخيرًا سألته:

- ألم يحضر الموظفون اليوم؟

ضحك الرجل وهو يقول:

- كان الله في عونك يا معالي الباشا، اليوم ذكرى ثورة عبد الناصر، وإجازة في كل مكان، لكن العمل أخذك بالكامل على ما يبدو.

ودعته وكررت عائدًا، لا حول ولا قوة بالله العظيم.

راح يضحك بصوت مسموع فجاريته في الضحك، ثم عاد مستطردا:

- هل رأيت أسوأ من ذلك في حياتك؟ تقلدت منصب مديرٍ عامٍ ويمكن أحسب عدد الأيام التي اشتغلتها طوال فترتي الوظيفية في الوزارة.

لقد صرت أحد تنابلة تلك الوزارة، لهذه الدرجة صرت أنسى الأيام، كم كتبنا عن تلك الثورة المباركة وتبارينا، منا من كتب عن قناعة ومن كان يجاري الوضع العام وحفاظًا على مكاسبه، لقد نسيت أشياءً كثيرة، ليت الأمر يتوقف على المبدعين فحسب وإنما صار الباب مفتوحًا على مصراعيه لكل من كان له ابن أو أخ أو قريب أو حتى جار كي يعينه تحت مسمى أنه مبدع في طور التكوين.

هل سمعت عن كلمة "مبدع في طور التكوين"؟

هززت رأسي نافيا ولم أتخل عن الابتسامة ولكن قلت:

- لا تعل همًا يا أستاذ؛ فكذا كل المجالات في البلد، فابن الضابط ضابط، وابن الخفير خفير، وابن الكلب سيظل ابن...

فقاطعني مبتسمًا كالمعتاد، وفي آسىً بالغ تكلم عن ابنة أحد أقطاب الأدب في بلدنا، وبعد وفاته حاول بعض تلامذته أن يقلدوا ابنته لقب أديبة وكاتبة، -كنت أعرفها وأعرف هذا العملاق الكبير، لكن أكون كاذبًا لو ادعيت أنني رفيقه أو جليسه، تلميذ يمكن أن أصف نفسي أمامه- فدفعوها دفعًا ونشروا لها عرفانًا وشكرًا لأبيها، لكنها اليوم اختفت تمامًا من الساحة، ببساطة شديدة الأدب لا يورث، لن أنكر أن الفساد موجود في قطاعات كثيرة، لكن الأدب والفن لا يستطيع أن يورث كباقي المهن والوظائف. سأضرب لك مثلًا، جاءني شابٌ في مستهل حياته، عرض على عملًا مسرحيًّا، يومها حاولت أن أفلت منه مدعيًا أنني لا أجيد النقد المسرحي، وساعة أن رأيت الحزن في عينيه، أخذت منه العمل، قرأته فكان مفاجأة لي، بعد أسبوع ضربت له موعدًا، جاءني مترددًا وكأنه يستحي السؤال، يومها بشرته بأنني قارئ

جيد، وعمله يوازي كبار كتاب المسرح والدراما، كاد الفتى يطير من الفرح والسعادة، وما لبث أن علت وجهه غمة، وباعتذار سألني:

- وكيف الطريق؟

حددت له المكان، وبعدها سافرت فلم آت للمقهى لمدة وصلت لستة أشهر، عندما عدت وجدت النادل الذي يقدم لي الشراب، امتدت لي يده مصافحًا فأسرعت بمبادلته التحية بأحسن منها واقفًا، أحاول أن أستجمع أفكاري أين قابلته، صاحب هذا الوجه ليس عليَّ بغريب، وكأن الصبي أدرك ما أنا فيه، ذكرني بنفسه بأنه صاحب العمل المسرحي إياه الذي أشدت به، وأنه ذهب كما قلت له لكن الأخت الفاضلة التي تستلم الأعمال يومها، أخذت منه العمل كما يقول وراحت تقلب أوراقه، وتبدي ملاحظاتها على العمل، وإنه لن يجاز ففيه وفيه وفيه، وراحت تعدد له كيفية الكتابة المسرحية وتشير عليه بالكتب المطلوب أن يعود إليها قبل الكتابة المسرحية. وصف لي الفتاة، أنا كما سبق وقلت لك أذهب قليلًا جدًّا إلى المقر، لكنني تذكرت تلك الفتاة، إنها ابنة أحد الموظفين القدامي، ورئيس الهيئة مشكورًا قام بتعيينها، أبوها رجل دمث الخلق محبوب من الجميع.. ويوم تم تعيينها اصطحبها الرجل ساحبًا إياها وهو يقدم لي مشروبًا باردًا، يعرفني بها وأنها أصبحت زميلتنا هنا في المقر، ما كان مني إلا أن رحبت بها وجلست أمامي وسألتها عن مؤهلها الذي تحمله، إنه دبلوم تجارة، لا تحب القراءة مطلقًا وليس لها أدنى علاقة بالثقافة عمومًا، تذكرتها ولعنت وظيفتي ومن يتقلدها، أما كان الأجدر بها أن يعينوها في أعمال كتابية وإدارية؟ أما أنها تتقلد منصبًا وتقرر

من يجيد الكتابة ومن لا يجيد، هذا قمة الاستهتار والجهل، وهذا ليس أدبًا بقدر ما هو قلة أدب، ملعون أبوها! أقصد الوظيفة، عفوًا أبو الفتاة رجلٌ مهذبٌ ورعٌ أنا لا أقصده، ولكنني ألعن أبو الوظيفة ومن يتقلدها ولا يعرف عنها شيئًا، استأذنت في الانصراف فحاول الفتى مستجديًا أن يقدم لي فنجانًا من القهوة على حسابه الخاص، ومضت أيامٌ بل شهور وقابلته، لكن تغير وضعه؛ فقد تعرف على أحد أصحاب شركات الانتاج، وهو موظف بالشركة ويكتب أيضًا، هل ترى ما يحدث؟ علينا ألا نتألم ونبكي على أوضاعنا الثقافية المتردية بفعل أيدينا، أنا مبدع وأجيد الكتابة لكن...

شعرت بالحزن في عينيه فلم أشأ أن أطيل عليه، لكنه كان الحافز الأساسي.

مسافر في الخيال

عندما وجدني مهمومًا نظر إليَّ وقال:
- زرعتها بامية طرحت بتنجان.
ضحكت ورددت:
- يا ريت، ده أنا لو عندي قيراطين أرض ملك ولا إيجار كنت عملت فيهم حتة عشة وهجرت الناس كلها وريحت دماغي.
- كداب يا صاحبي وزي ما قالوا لو تابت القحبة كعبها يرف!
- وصف وحش.
- بس حقيقة، كل واحد مسحوب من عرقوبه وغاوي وقالوا الغاوي ينقط بطقيته، تعالى انت زعلان ليه؟ لا انت واحد مثالي ولا أنا، تعالى نبص حوالينا، فيه رجال دين محترمين استغلوا مناصبهم واستفادوا، وكله بيقلب رزقه ويدور على لقمة عيش، ناوي تنصب نفسك حاكم على أفكار البشر؟
نحتسي الشاي المصنوع فوق ركية النار، ورحنا نجتر ذكريات زمان، وإحنا مش عايلين للدنيا هم، افتكرنا الواد (سيد الجعر) كان واد فقري، كان ماشي في الدنيا بصدره وساعات كان يقول: "يا أرض اتهدي ما عليكي قدي"، إحنا الاتنين متعلمين وهو خريج الصف السادس الابتدائي، كنا حبايب واتقلب علينا الواد الفاجر، وكل ما كان يتفرد بواحد فينا يقلِّبه وممكن يتطاول باليد كمان، يومها اتفقنا إن لازم نوقفه بأي طريقة، واتفقنا نصيده في حتة بعيدة، وربنا شد عزيمتنا وسففناه من تراب الأرض، من يومها وعرف إن الله حق وبقى حبيبنا وصاحبنا، كان بيتاجر في

المخدرات على صغير، واتقبض عليه والحمد لله إحنا مالناش في الطريق ده، بقى متعود على السجن يعني رد سجون، المصيبة والوكسة إن دمه كان خفيف، كان يخترع أي حاجة ولو كدب يجيب منها فلوس، في يوم باع كلب لأكبر تاجر بهايم في بلدنا، ومعروف إنه كداب، بعد ما حط للكلب عكامة على خشمه وخباه جوه شوال، أقنع يومها التاجر إنه خروف مسروق، وما صدق صاحبنا التاجر عرض عليه ولا يكمل ربع تمنه، وكانت الدنيا ليل، خد الفلوس وجري من قدام وشه، وشاركناه وكلنا وشربنا معاه، بس كنا فرحانين في صاحبنا التاجر والمقلب اللي كله، بعد كام يوم قابل التاجر سيد الجعر وهو بيضحك، قبل سيد الجعر ما يقول تعيش وتاخد غيرها، أقسم التاجر إنه باعه لجزار والجزار باع الكيلو بضعف تمنه، وكل اللي داق لحمة الغزال بيطلب منها تاني، نضحك معًا، ليست هذه حكاية من محض خيال، حصلت بالضبط؛ يعني كله بيلبس طاقيته للتاني وكله بيكسب من ورا كله، طيب ليه الزعل؟ المهم إن أوراق الجعر كلها بقت مكشوفة وزي ما بيقولوا لازم يدور على بلد تانية يعرف يبيع بضاعته البايرة، افتكرنا الشيخ (كمال الطيب)، كان الجعر بيعطف عليه دايمًا ويحبه وكمال كمان، عمل الجعر بطاقة باسم كمال الطيب وعليها صورة الجعر وبالفلوس قدر كمان يطلع جواز سفر، وهب فص ملح وداب ولا حد عرف له طريق جرة، اللي يقول في السعودية ولا الأردن وأغلب الناس قالت في العراق، بعد أيام قالوا في ناس تضررت في العراق ولهم فلوس بموجب أوراقهم الثبوتية، طبعًا اسم الجعر لا وجود له، المهم إن التعويض جه باسم كمال الطيب، ماحدش كان مصدق، وسحبوه وسحبوا

الفلوس وعينك ما تشوف إلا النور.. لبس الهدمة النضيفة والطاقية المكوية ومنسيش حتى العطر يكبه على جتته، يا عم ماتعلهاش هم ربنا مسيرها وكل واحد هياخد نصيبه.

ليلتها جاتني فكرة إني أكتب الحدوته دي في قالب مسرحي، وتقريبًا طلعت معقولة لحد ما، فأكتر من واحد قراها اقتنع واتبسط بيها وطالبني إني أقدمها لأي مخرج أو حتى للنشر.

لا أنكر كان الأستاذ (يسري حسان) الكاتب والإعلامي المعروف صاحب فضل؛ فقد قام بنشر هذا العمل المسرحي وكان تحت عنوان "من أولها كدب" من خلال جريدة مسرحنا في أسبوعين متتالين، يعد الرجل هو من ألقى الضوء حقيقة على كتاباتي، وكثير ممن قرأ جريدة مسرحنا أشاد بالعمل، وأقيمت له أكثر من ندورة وتناولته معالي الدكتورة (سوسن ناجي) ومعالي الدكتور (محمد مدني) بمشاركة الناقد والأديب دكتور (منير فوزي)، وكانت سعادتي غامرة لكون تلك الكوكبة من العلماء قلبوا أوراقي وكتبوا عنها وأشادوا بها، لم يصبني الضيق أو الضجر من بعض الزملاء ممن يسعون دائمًا لرشق سهام أفكارهم السوداء في أفئدة الآخرين، فقالوا ما قالوا، بل اتهموا من أفسح المجال لخروج العمل للنور بصفات سامحهم الله وأنار طريقهم بالخير، بل اتهموا العلماء والمخصصين في علوم المسرح بأن كلماتهم لم تخرج إلا مجاملات لشخصي، لهم الشكر، أضحك من كونهم أصبحوا كتابًا للمسرح الذي تخرجه الثقافة الجماهيرية أو ربما مخرجين وممثلين وهذا بحكم وظائفهم التي يتقلدونها في الثقافة الجماهيرية، فهذا يسير وفقًا للمبدأ القائل "خد حقك

حلف وأحرقه" أو "جحا أولى بلحم توره"، رغم ابتعادي تمامًا عن زحامهم فيما يسعون خلفه من كسب من وراء أعمالهم.

وعزمت على عرضها على مخرج أعرفه وقالوا عنه إنه إنسان محترم وموثوق به وبأعماله، وإذا تحدث فقد صدق، وقد كان فعلًا بهذه الصورة التي نقلوها عنه، فرحب بي الرجل كثيرًا وأنزلني منزلةً لا بأس بها، لا أنكر فضل صديقي رئيس التحرير فقد كان همزة الوصل بيني والمخرج إياه، وتحدث مع المخرج وعرضت رؤيتي وفكرتي وأستمع جيدًا بل أبدى سعادته بالفكرة وبالموضوع.

وتكرر لقاءاتي مع المخرج الجميل ولكنها بعيدًا عن رئيس التحرير، كانت تلك اللقاءات وفقًا لرؤيته أن نكون بمفردنا لنناقش بحريةٍ بعيدًا عن العيون، بالطبع وافقت وفي كل لقاء أقوم بالحساب طبعًا، حقيقة لا أستطيع أن أنكرها في تلك الآونة كانت ظروفي المادية جيدة لا يرهقها أن أقوم بالحساب لأكل أو مشروب، عندما ضرب لي موعدًا في وسط البلد، توقعت خيرًا وشعرت في كلماته بفرح، تقابلنا فقال:

- الناس بتستغرب.

- خير.

- بيقولوا الكاتب ده مختفي فين؟

ضحكت وأنا متماسك وقلت:

- أصلي بخاف من الحسد.

- يا أخي بتكلم جد.

- يا سيدي أنا تحت النظر.

- تعرف الأستاذ (....) لما قرأ النص؟ ياه على الإعجاب والفرح بيه، الفكرة لما تتجسد فوق خشبة المسرح هيبان عبقرية الكاتب، وكتب تقرير رائع، بكرة إن شاء الله هياخده العامل عشان يخلص شوية موافقات.

بالطبع العامل راجل بسيط، أقلها إن إحنا نشوفه بكوباية شاي، وعلى رأي الأستاذ فؤاد المهندس: "مش كده ولا إيه؟".

ومن ينكر فضل هذا العامل! وكان علينا أن نكرمه قبل أن يأتي بالتوقيعات، ودفعت بلا تردد له ليهب العامل حتى يعمل بذمة ويأتي بباقي التوقيعات، وتكرر اللقاء وكل مرة الإشادة لا تتوقف، وكل مرة هناك ما أخر العامل عن الذهاب؛ فقد كانت زوجته مريضة شفاها الله، وعندما بكى أمام المخرج لم يتمالك نفسه فدفع كل ما في جيبه للعامل، ابتسمت وقلت له:

- محلولة بإذن الله تعالى، يا سيدي ماتعولش هم، ألف سلامة لزوجة العامل حبيبنا.

عندما ذهب العامل في المرات التالية لم يجد المسئولين؛ فاضطر إلى الرجوع ولم يوقع الأوراق، علينا أن ندفعه ثانية وأقلها حق التاكسي في الذهاب والإياب، كما يقولون: "مش باقي على الحلو غير زقة"، نزقه يمكن فيها خير، وممكن يكون حس إن العملية مش باين لها نهاية وريحتها فاحت، فابتَعَد عني.

ما زلت لا أعرف السبب، هو ورئيس التحرير يبدو أنهم أصدقاء من فترة طويلة قبل أن ألتحق بحقل معرفتهما، المخرج يحاول في لقائه معي أن نكون بمفردنا، رئيس التحرير كلما شاهدني يكرر السؤال المعتاد: "هو ماخلصشي الموافقة الخاصة بعرضك المسرحي؟ ليه؟"، أحاول أن أتهرب من السؤال بطريقة وأخرى،

أشعر في ابتسامته بشيء غريب لا يفصح عنه، لكن بين كلماته ما يطالبني بالطناش، الطناش بعد كل ما حدث؟!

هز رأسه وقال:

- لا تتعجب، ستجد من هذا كثيرًا، فأنت لست...

لم يكمل عبارته ولكنني أدركت أنها تحمل معنى السذاجة في تصرفاتي ومعاملاتي.

سبحان الله وبحمده، في تلك الأثناء أكرمني الله؛ فازت مسرحية تقدمت بها إلى مؤسسة ثقافية، وطالبوني أن أوقع عقدًا بشأن العرض، ليس ذكاءً مني فقد أسرعت بدعوة كل من رئيس التحرير والمخرج الجميل لحضور توقيع العقد، ولا مانع من الاحتفال معًا، أشعر وكأن شيطاني دفعني لذلك لأحفز سيادة المخرج أن يعجل بعرض المسرحية التي أشاد بها وقرر أن يخرجها بنفسه، لكن للأسف ذهبت أفكار شيطاني أدراج الرياح، فلم يتحرك المخرج ولو خطوة واحدة لاتمام العمل، رئيس التحرير يضحك ويصرح بلا مواربة هذه المرة:

- هو خد كام؟

وأسرعت أقول له بأمانةٍ إنه لم يأخذ شيئًا، ازدادت ضحكاته وهو يعلن بصوتٍ عالٍ أنه لن يفكر في إخراج هذا العمل، طالبني بالتحرك صوب مخرجين آخرين؛ ففي الحركة بركة، في الفترة اللاحقة كنت مستمرًا في ملاحقة المخرج منتظرًا أن يفصح عما يريده وأنا مستعد، لا أنكر أن هذا المخرج علاقاته متعددة وأعماله المسرحية التي يعرضها على خشبة المسرح يستقبلها الجمهور بسعادةٍ ويتناولها الكتاب والنقاد، وكنت في نفس الوقت

حريصًا على ألا أذكر كلمة للسيد رئيس التحرير، لكنه ليس غبيًا فهو متقد الذكاء، وكلما جلسنا يسألني:

- ما الذي انتهيت إليه في إخراج عملك المسرحي؟

أحاول أن أقول إنني صرفت النظر عنه نهائيًا، يبتسم في خبث كأنه يقول: "بكرة نقعد على الحيطة ونسمع الزيطة".

حمدًا لله وشكرًا لم يخرج العمل إلى النور، ولكن ظلت علاقتي بكليهما قائمةً حتى الآن.

المتلوِّن

المتلوِّن، أطلقنا عليه اللقب في آخر أيامه معنا؛ فقد تأكد لنا جميعًا أنه يجاري بأفعاله الدنيا من حوله، يتصنع المودة ويشكر من يقدم له المعروف عرفانا بالجميل، يصيغ عباراته بحذق ومهارة فائقين، هادئ لا تفارق الابتسامة وجهه، يحمل كمًا من برود الأعصاب لا يضاهيه إنسان على ظهر الأرض، لا يعرف معنىً للهزيمة، ينتظر حتى تسنح فرصة مواتية ليغير مجرى الأحداث وغالبًا لصالحه، يجيد التسلل بأحاديث كثيرة تتناسب والموقف، أخيرًا حصل على درجة الدكتوراة، لا أحد يعرف أين الحقيقة في كل أحاديثه، لكن أغلبها معجون بآفاق فكره المدعية بظروفه القاهرة التي يعيشها وأسرته، أغلبنا نتعاطف معه ونفتح له قلوبنا، نعتبره مثالاً حيًا للقوة والإصرار، حتى لو لم يرد ما عليه من نقود وخلافه، فنلتمس له الأعذار، كل حكاياته معي يجعلني أكثر تعاطفًا معه، عزيمته قوية وعقله حاد الذكاء، يصيغ أي موضوع بحُبكةٍ رائعةٍ لا يمكن أن يتوجس أي إنسان يسمعها، أو يداخله شك في صحتها، شبه اجتمعنا للدفاع عنه ومراعاة ظروفه التي يحاربها من أجل الوصول وإثبات ذاته، أغلب الزملاء في المدرسة التي يعمل بها يتحملون حصصه ويواصل هو الغياب بطرقٍ متعددة، ربما ادعاء المرض فإجازات مرضية عن طريق أي طبيب يتعرف عليه فيسوق له الأسباب، ربما بصورةٍ غير مباشرةٍ تحت مسمى التحضير لرسالة الماجستير ومن بعدها رسالة الدكتوراة، سعدت كثيرًا بأنه استطاع نيل شهادة الدكتوراة، وسافرت ولم أره لأكثر من عشرة

أعوام، لكنني عرفت من الزملاء بأنه سافر إلى الخارج وأن ظروفه صارت أفضل، بل تزوج وهذا كان بعيدا جدًّا عن خيالاتنا جميعًا؛ فهو عازف عن الزواج، هكذا كان يدَّعي أمامنا وأنه رهين ظروف أهله وإخوته وأنه يفضلهم على نفسه فكيف يفكر في ذاته؟ سلبنا مجرد التفكير في أي نية سيئة عنه، فتوسمنا فيه دوافع إنسانية راقية يسعى لتحقيقها لأسرته.

هو يعرف أنني مصابٌ بداء لا شفاء منه وهو الكتابة، بل كنا نتبادل الضحك وأذكر مقولته جيدًا في هذا المضمار: "إنها مهنة من لا مهنة له"، أنا أكتب ولكن في تلك الفترة لا أنشر، فكانت حركتي قاصرة على تناول ومناقشة ما جادت به قريحتنا وما نكتبه على بعضنا، فمعروف من يستطيع أن يصل بكتاباته للنشر معارفه وقدراته في اختراق حواجز معينة، وأنا لا أجيد الطرق على الأبواب المغلقة غالبًا، لكن استطعت وفي حياءٍ بالغٍ أقول إنني نشرت روايتين وعملًا مسرحيًّا، نعم على نفقتي الخاصة؛ فدائما يعلن الناشرون أنهم في الغالب يخسرون، وكان الكتاب الأول من خلال ناشر وصديق، دفعت له ثمن طباعة ألف نسخة كما طلب، مشكورًا كل ما طبعه تقريبًا حوالي مائتي نسخةٍ وباعني منها مائة وخمسين، حمدًا لله وشكرًا؛ فقد تحققت إحدى أماني وأصبحت كاتبًا غير معروف على المستوى الثقافي والأدبي، أنتظر ربما تسنح الفرصة ويشير إليَّ أحدهم بأنني كاتب لا بأس به، لكن أين هؤلاء بالنسبة لي في هذا التوقيت؟ المفاجأة غير المتوقعة أن صديقي الدكتور يرسل طلب صداقة إليَّ عبر الفيسبوك، لم أصدق نفسي، وأسرعت ملبيًا، لقد أضحى اليوم من مشاهير النقاد، بل يستضيفونه في أمسياتٍ ثقافية ويقبض المقابل المادي، سواءً في

المؤسسات أو الإذاعة والتلفزيون، تتبعت صفحته المكدسة بأخباره وندواته وكلماته عبر الأمسيات، منَّيت نفسي أن يحاول دفعي وأن يرصد في كتاباتي ما يستحق، فكان قديمًا يشيد بكل ما أكتبه؛ بل أحيانًا يقسم أن ما أخطه أفضل كثيرًا من كتابٍ كثيرين يشيرون إليهم ويصنفونهم من الأدباء الكبار، مؤكدٌ بعد أن يرى كتاباتي التي خرجت للنور في صورة كتب سيفعل الكثير، أتذكر أنه كانت لي مواقف معه تتسم بالرجولة والشهامة، هو الذي اتصل بي فلا عيب أن أطلب منه ما أريد، إنه صديق غالٍ وله باع كبير في الثقافة والأدب، حلمت بأشياء كثيرة: رأيت صورتي عبر الجريدة التي يكتب فيها في أحيانٍ كثيرة، يرصد بذكاء وبأفكاره الجميلة مواطن الجمال في أعمالي وهو كان يرددها قديمًا وكثيرًا، إحساسٌ بنشوةٍ وبهجة غالبة في كل يومي، أحلام كثيرة تتوارد على ذهني فأمنِّي نفسي، أستعد للسفر لمقابلة صديقي الدكتور وأشيد به وبعقله لزوجتي وأولادي كلما سنحت الفرصة، عزمت على أن أهديه ما طبعته ونشرته من كتب، وعمومًا لا يزيدون عن ثلاثة فحسب.

كان استقباله هاشًا باشًّا كما يقولون، طبعًا كانت المقابلة في مكانٍ عام، وفي مقهى قريبٍ من مقر سكنه، عندما حل موعد الغداء دعاني لأشاركه إياه، شكرته وعرضت عليه الكتب التي نشرتها، معالم السعادة واضحة جلية فوق محياه وهو يقلب الصفحات ويشيد بالناشر والكتاب، كانت سعادتي التي لم أفصح عنها كبيرةً جدًّا، لقد أثلجت صدري كلماته، وأنا لا أبتغي منه غير ذلك، لم يفته بالطبع أن يتحدث عن نفسه كثيرًا، علاقاته المتعددة بأرباب الأدب والثقافة في مصر بل كثيرا ما تعدت الحدود، تلك حقيقة لا شك

فيها فأنا أعرف قدراته في التسلل والاختراق، لكن ما لم أستطع استيعابه هو حديثه عن نفسه وأسرته وعلو شأنهم، يتحدث بصورة غير مباشرة، أمتص كلماته التي يلوكها من بين شفاهه، أتمنى أن أقول: "إحنا دافنينه سوا"، الصمت أفضل في تلك الحالات، فأنا أتيت وفي نيتي أن ألتمس منه المساعدة؛ فقد أضحى اليوم في مكانةٍ مرموقة أو هكذا صوَّرَت لي خيالاتي من خلال ما رأيته من صفحته على الفيسبوك أو أحاديثه لبعض الصحف، يتحدث بصَلَفٍ وغرورٍ عن واحدٍ من أكبر الكتاب في مصر بل في العالم العربي، يصفه بأنه لا يستحق كل تلك الأحاديث المرددة عنه وأنه ليس مبدعًا بل سارق أفكار الآخرين. تهتز رأسي موافقةً على ما يبديه من أقوال منها كثير لست مقتنعًا به إطلاقا، يتحدث عن الوسط الثقافي والأدبي فيكاد يصفهم جميعًا بالجهل وقلة الأدب، يستعرض أشياءً لا أعرفها عن الوسط الثقافي وكيفية الاسترزاق أحيانا بالهجوم على شخصيات ذات شأن، أو ربما النبش في التاريخ والتشكيك فيه، أغرب من هذا فإنهم يرفعون من شأن من يهاجم الدين والمعتقدات الدينية، يدفعون به لنيل أكبر الجوائز الثقافية، عند تلك الأخيرة أنا معه؛ لأنني فعلًا قرأت لأكثر من كاتبٍ مجرد أن تطاول على التاريخ رفعوه ورشحوه لجوائز عالمية، أما الثاني وقد جاءتني الفرصة أن أقرأ بعض كتبه فقد تجرد من الحياء ووصم الدين والعقيدة والرسول عليه الصلاة والسلام بصفات كلها عبارة عن سحرٍ وشعوذة، التشكيك أساس رفعة شأنه، نعم لا أنكر فقد حاز على أكبر جوائز الدولة، أما تلك الكاتبة وزوجها فقد رفعا من شأن الحرية والإباحية عمومًا وأطلقا سهام أفكارهما على القيم والأفكار المتوارثة؛ بل وصفوها بالرجعية والتخلف، كان في أثناء

كلماتهما دعاوى للفجور بل إنهم رحبا بالدعارة تحت بصر وعين الدولة، صديقي يتصنع البطولة الزائفة ويرفع سيفه في وجه الجميع من هؤلاء الكذبة كما يصفهم، عليّ أن أوافقه في كل رؤياه وأفكاره التي تتسم بالثورية والغيرة على الفضيلة كما يقول، أحاول أن أغلق باب ذاكرتي عن أفعاله القديمة، تراودني ذكريات عن سيدةٍ يومًا شكت لي من أنه استغل ظروفها واقترض منها نقودًا تحت دعوى الحب أملًا أن يتزوجها، كانت سيدةً مطلقة، الأدهى أن السيدة وصفته بالجنون؛ فلم يكتف بأكاذيبه عليها وإنما حاول أن يوقع بابنتها في شباكه أيضًا وكانت تلميذة بالصف الثاني الثانوي، أهش تلك الأفكار السوداء التي تعشعش في صدري من زمنٍ فات، بل أجابه نفسي: وما يدريك بصدقها؟ ربما كانت كاذبة وتدعى الصلاح والتقوى، لقد فتحت له باب بيتها واستقبلته وجعلته شبه وصيٍ على ابنتها، أليس كذلك؟ بل لم تترك الباب مواربًا وهو يستذكر لابنتها دروسها فقد أغلقته بيدها تحت دعوى أن يركزا في العمل، أحاول النسيان وفي كل كلماتي إشادة به وبأخلاقه وذكائه، ينتشي بكلماتي فيواصل سرد أقاصيص غريبة، مجبر أنا على أن أصدقها، جرس هاتفه الجوال لا يتوقف وتكون ردوده شبه معتادة؛ فكل من يتصلون به ينعتهم بلفظ "معالي الباشا" أو "الدكتور" أو "سيادة العميد" أو "المستشار"، أتوقف عن الحديث حتى يتسنى له الرد على تلك المحادثات الهامة كما يشير دائمًا، وجاء اتصال آخر لكنه صوت نسائي تعمد أن يسمعني إياه في البداية، وما لبث أن واصل الحديث معها، أشار بإبهامه إشارة تدل على الانتصار، يحدثها عن مفاجأة ثقافية سيكون لها السبق في اللقاء، ترن ضحكتها وتصفه

بالعبقري، أصمت وأنتظر ريثما ينهي مكالمته، أظن أن دعوات أمي التي كانت تطلقها بالليل والنهار لرب العرش العظيم أن يوفقني في مسعاي وأن يحبب فيَّ خلق الله جميعًا، أعتقد بأن أوانها قد حل واستجابت السماء، تنهيدة لكن بلا أسى مصحوبة بابتسامة، أشعل له سيجارة، فيرمي رأسه للخلف ويقول:

- إنها إعلامية معروفة، ممن تفتح لهم الأبواب المؤصدة في مجال الإعلام والثقافة.

يتحدث عن أصلها وفصلها وأسرتها ذات الامتداد العريق، ويبشرني بأنها ستكون محطتي القادمة، يطالبني بأن أجتهد وأحضر نفسي جيِّدًا حتى يترك لقائي معها بصمة في عيون وآذان المشاهدين، يطالبني بألا أبدو متواضعًا صامتًا، وضع أسسًا غريبة لي ويطالبني بتنفيذها، يقول دائمًا بأنهم يفسرون التواضع بالصفات المذمومة، يضحك فأجاريه في الضحك وأشعل له سيجارة جديدة، أمام رائحة الشواء المنبعثة من (حاتي) مشهور في المكان الذي نتحرك فيه، يضرب يده فوق جيبه ويبتسم وكأنني أدركت ما سيقوله قبل أن ينطق به، فيتحدث عن واجب الضيافة في رقبته ويبدو أنه نسي حافظة نقوده في المنزل، أسرعت ودعوته لتناول ما شاء لنا من طعام وأنا أردد:

- لا فرق بين جيبي وجيبك، يا سيدي ما بين الخيرين حساب.

رأسي تتذكر أن تلك كانت أفعاله منذ زمنٍ مضى، لكنه ها هو أمامي بنفس الأفكار القديمة، لا يهم.. المهم أن يساعدني على أن أظهر بصورة جيدة، ربما كانت بداية خير، وزي ما غنت الشحرورة: "الغاوي ينقط بطقيته"، عمومًا ما زالت الطاقية فوق الرأس وعامرة، والجيب والحمد لله فيه ما يكفي وزيادة، يأكل في نهم ولا

يتوقف عن الحديث عن ملامح الغد، إنه يرصد جملًا وعباراتٍ كتبتها وقرأها ويقول عنها إنها تستحق أن تؤطر بالذهب، يبدو أن المشويات لها أثر قوي على الذاكرة، أفاض بأحاديث متنوعة ولم ينس أن يقلل من شأن الآخرين ويصفهم بالجهل والغباء.

سافرت سعيدًا جدًّا، عدت أكثر نشاطًا وعزمت على أن أكتب المزيد من الأعمال الروائية والمسرحية، لقد أدركت الطريق وصديقي القديم الدكتور الجهبذ الصلد مصمم على أن يفتح أمامي أبواب الغد مهما كانت مغلقة، لم نتوقف عن الحديث عبر الهاتف عندما تسنح له ظروفه، فكثير ما أطلبه ولا يرد أو يكون تليفونه مشغولًا فألتمس له الأعذار؛ فهذا شأن الكبار عمومًا.

وكان اللقاء الثاني، في ورقة لا تتعدى السطور العشرة وبخط جميل وبكلمات قليلة فاض فيها بالثناء على عمل من أعمالي، قضينا أغلب اليوم معًا وكالمعتاد تناولنا طعام الغداء عند (حاتي) شهير، أبدع وتألق في حديثه وأشاد، علينا أن نتناول الشاي في مقهى قريب، تعمد صاحبي أن يكون مجلسنا في مكان شبه منعزل، نتبادل حديثنا المعتاد مع رشفات الشاي وأنا أنفث دخان سيجارتي أما هو فقد استبدل السيجارة بالنارجيلة ذات الرائحة الذكية الفواحة، من بين ضبابه النفاذ القوي طلب مني أن أقترب أكثر، في صوت يقترب من الهمس:

- هناك أشياء في غاية الأهمية والسرية.

صمت وكأنه يستجمع أفكاره، وأنا علت وجهي الدهشة في انتظار ما يفيض به، فاستطرد:

- هناك لكل جائزةٍ كبيرةٍ مجلس أمناء، عيب أن يتحدثوا عن أنفسهم، أمانة الجائزة تشترط السرية التامة حول الأعضاء ومن يختارون الفائزين.

في توتر لهجته وكلماته يحدثني قلبي بأن هناك حدث جلل سيقوله صاحبي، لم يخذلني ظني، صرح لي بصوته الهامس بأنه أحد اثنين للجنة تتبع أحد الجامعات الألمانية المكلفة بتتبع الثقافة في بلدنا وترشيح من ينال الجائزة الخاصة بالجامعة، علما بأن العمل الروائي أو المسرحي سيترجم إلى الألمانية وأغلب اللغات الغربية، راح يصف ما سينال صاحب العمل، يكفي شهرة تصل لمختلف بلدان العالم، إنها فرصة من فاز، فكما يقولون تفتح له أبواب السماء على مصراعيها، أرشف قليلًا من الماء فقد جف حلقي وتواردت الخواطر والأفكار تباعًا، هل في نيته أن يرشحني؟ أتوه في آفاق الغد رغم أن صاحبي ما زال يتحدث معي، أدعو الله في سريرتي أن يرشحني، يواصل الحديث ويحدد قيمة الجائزة والمرصود لها 20 ألفًا من الجنيهات الإسترلينية، وتبرق عيناه ويطلع إليَّ وكأنه يستطلع ما طرأ على سحنتي من انفعالات، ويقذف على رأسي ما فكر فيه، لقد استقر عزمه على ترشيحي لنيل تلك الجائزة، صمت ونظر بعيدًا وكأنه ينتظر ما تسفر عنه قنبلته التي ألقاها عليَّ، ماتت الكلمات في حلقي ولم أدر كيف أواصل الحديث، حقًّا إنه صديقي الرائع منذ عرفته، صاحب السلوكيات الرائعة التي يشيد بها من كل من عرفوه، تخلصت من خرسي اللحظي وتحدثت وكأنني في حضرة الوالي أو السلطان، سألته بأن ما يفعله كبير جدًّا وتاج يضعه فوق رأسي، وألف وأدور وكأنني غير واثق بالعمل الذي أشار إليه، يؤكد أنه من أروع

الأعمال التي قرأها في الخمس سنوات الأخيرة، يشيد بقوة بالأفكار التي تضمنها الكتاب والأسلوب، الخلاصة إنه يستحق الترجمة والنشر عالميًّا، كيف أشكره، عمومًا هو إنسان أصيل ويتذكر العشرة الطيبة، كان يومًا رائعًا بكل المقاييس، بهجتي لا تقارن، اتفقنا على أن أقابله في الغد ومعي خمس نسخ من الرواية لإرسالها، وافقت وكررت شكري.

تقابلنا وتناولنا الغداء، وجلسنا بعيدًا عن العيون، وأفصح عما يتخوف منه، فقال إنه من الأفضل طالما سنتقدم للمسابقة فلا داعي لأن نظهر معًا، حتى لا تثار الشبهات بعد أن أنال الجائزة، أسأله عن مدى تأكده من نيلي الجائزة، لا يرد ويكتفي بابتسامة واسعة، وافقت على رؤيته وانصحت لأفكاره، لكنه بكل جرأة سألني:

- كم ستدفع؟

- في ماذا؟

ضحكته أشعر وكأن الجدران اهتزت لها، واستدركت الأمر فعدت بسرعة:

- يا أخي أنا كلي ملكك!

- حبيبي، ما أوله شرط آخره نور.

- كلامك وطلباتك فوق رأسي.

- بعد أن تكسب الجائزة كم نسبتي فيها؟

- ما تطلبه رهن إشارتك.

وكأنه يفكر وما لبث أن قال:

- يكفيني عشرون بالمائة من قيمتها.

لم أفكر كثيرًا فقد رددت خلفه وبسرعة:

- موافق ومستعد لأن أبصم لك بالعشرة.

بعد أن استلم مني صورة البطاقة الشخصية، وكتب بيده نبذةً مختصرة عن سيرتي الذاتية، فيها أشياء كثيرة غير حقيقية، أحاول مراجعته، ينظر إليَّ وابتسامته المتهكمة تسخر مني فألزم الصمت، لم ينس الصورة الشخصية، سلمته كل ما طلبه، في نهاية لقائنا ونحن نودع بعضنا على أمل اللقاء، طلب مبلغا ماليًّا حتى يستطيع أن يرسل مطبوعاتي إلى ألمانيا، مسحورٌ أنا بكل ما يتفوه به، أخرجت حافظة نقودي وسلمته ما يريد تمامًا.

انتظرت كثيرًا، لم يتصل حتى تلفونيًّا، مضى عام ولكنني لم أفش السر القائم بيننا، ربما فسره البعض ضدي، أو ربما أخذوه وسيلة للسخرية والضحك على أفعالي، كانت جلسةً رائعةً في أحد المنتديات الثقافية، وكان صديقنا الودود الراقي معالي الدكتور العميد، جاءت سيرة صديقي من أحد الحضور، ضحك أغلبهم فجاريتهم في الضحك، تحدث العميد صاحب الفضل على الكثيرين فقال:

- إنه أُلعبان كبير، لقد قدمت له كل ما يريد، كان ذكيًّا من يومه، فتحت له باب بيتي حتى كان شبه إقامة دائمة طوال الفترة التي يقضيها في القاهرة.

الرجل يضحك وهو يصفه بأن الظروف القاسية تدفع الإنسان أن يفعل الكثير من الأفعال السيئة، تباروا في ذكر أساليب خداعه المبتكرة، وتطاوله على كل من ساعدوه، لكن العميد مصمم بأنه ذكي ودرجته العلمية مستحقة بكل المقاييس، لكن وسط هذا كله يقول وهو يضحك ولكن في أسى:

- أمنيتي أن يرد لي كتبي التي استعارها أثناء رسالتيه للماجستير والدكتوراة، فمن يره بالله عليكم يذكره ربما كان ناسيًا.

شباب وفراغ وجنون

حمدًا لله؛ فقدت تعديت الستين، وكما يقولون: "شَرَّكْ طار وريشك اتنتف"، وأحيانًا: "خلاص سلمنا النمر"، بمعنى أصح لا وجود في عقلي ولا أدنى تفكير في مغامراتٍ شبابية، ولا تطاردني أحلام مراهقة متأخرة فأسبح في تيار أفكار كاذبة، حتى زوجتي والحمد لله رفعت من رأسها موضوع الغيرة التي تنشب في عقول السيدات، وعمومًا هي أدرى بالحقيقة من أي إنسان، وأتمنى أن لا يفكر أي منكم بتفكير سيئ، وبالطبع كان عليَّ احترام سني وعمري، فابعتدت غالبًا عن أية سلوكيات وعزفت شبه كلية عن أي شيء ممكن أن يثير كلمات أو إشاعات لا تثمن ولا تغني من جوع، لا أنكر أنني كتبت يومًا في أحد أعمالي الروائية أن "الجنس رمانة الحياة وسر عشقها"، الناشرة الكبيرة قالت إن هذا كلام مفضوح، لا يصح أن تبدأ عملًا روائيا بتلك الفجاجة، هذا عيب كبير ترتكبه، لم تقبل نشر كتابي عندها ونشر من خلال هيئة الكتاب، رغم أنها أحيانا كانت تستقبلني بالأحضان جزاها الله عني خيرًا، ويوم طلبت منها في وجود ابني الذي اقترب عمره من الأربعين:

- يا سيدتي لماذا كان استقبالك لي فاترًا وبلا أحضان؟

ابتسمت وردت مباشرة وبلا تردد:

- حرصًا وتخوفًا من الكورونا.

هل الكذب صفة أساسية تلازم الكُتَّاب والمثقفين؟ أمام الشباب أتقلد دوري جيدًا، أمثل دور الأديب وربما المفكر وأحيانًا أتصنع

دور الشيخ والمعلم، أنا أعرف أن قدراتي محدودة وأفكاري غالبًا لا تخلو من السطحية، ولكنهم جزاهم الله خيرًا يعجبون بها كثيرًا، لا أدري ما السبب، ربما بركة دعوات أمي بأن يحبني البشر.

حانت فرصة لأن أتعرف عليها، هي تحمل من الجمال ما يؤهلها لأن تتربع على قلوب عشاق الجمال، أما عن الثقافة فلها حضور غير عادي تستطيع بلباقة غير عادية أن تستقطب العيون والآذان، وعن الأصل الطيب فقد اخترق أذني وتأكد لدي أنها تنتمي لأرقى العائلات، وأنها حريصة على أن تبدو في صورة محتشمة تعكس رؤيتها وفكر أسرتها، في حديث كنت أتمناه كثيرًا ربما لم يطل، عرفتني وعرفتها واكتفت برسم ابتسامة موجزة راقية وهزت رأسها، فقابلت تحيتها بتحيةٍ مماثلة ولم أشأ أن أفيض فينعكس مدى إعجابي، بل حاولت أن أحيد ببصري عنها وأكتفي باختلاس نظراتٍ بين الحين والآخر، كانت مفاجأة لي أنها قرأت أحد كتبي المتناثرة أحيانا على الرصيف.

في طريق خروجي من المقهى المشهور برواده من المثقفين أو مدعيها وبعد خطوات قليلة، اقتربت السيارة مني وما لبثت أن توقفت بجواري تمامًا، التفتُّ ونظرت إلى الداخل، وجدتها أمامي بشحمها ولحمها وابتسامتها الراقية وهي تنظر إليَّ متسائلة:

- إلى أين؟

- لا أعرف في الحقيقة.

- أمامي بعض الوقت، يمكنني أن أقوم بتوصيلك لأي جهة شرط ألا تكون بعيدة؛ فأنا عليَّ العودة في خلال ساعتين.

- خالص شكري، تفضلي سيادتك.

- معك سيارة؟

- لا أمتلك سيارة ولم أمتلك ولا أفكر.

أمام انطلاق آلات التنبيه من السيارات الخلفية، وهي تدعوني بصورة شبه آمرة أن أركب السيارة بسرعة، لم أجد مفرًا فصعدت إلى السيارة.

انصعت لأمرها، ودارت في رأسي حوارات، ماذا أقول إن سألتني عن طريقي؟ أنا كنت في طريقي لأتناول طعام الغداء رغم أن الليل قد حل، كنت أمنِّي نفسي بأكلة كوارع في وسط البلد عند المدعو "بجة"، لست معتادًا على أن أرهق نفسي بتفكير كثير، أطلق غالبًا نفسي على سجيتها في الحديث أو الفعل، ماذا أصابني؟

- إلى أين طريقك؟

أفصحت في تردد وابتسامة كانت حياءً، فربما وصفتي الفتاة بالكهل المفجوع، ربما دارت في ذهنها أسئلة ولماذا يفكر في أكل الكوارع؟ فرحت ألتمس لنفسي الأعذار بأنني لا أتناول طوال يومي سوى وجبتين، وتلك وجبتي الأساسية، أما السبب في تناول تلك الوجبة اليوم فهذه نصيحة الطبيب المعالج لي، اكتفيت بهذا القدر من الحديث، لا تنظر ناحيتي فهي مهتمة أكثر بالطريق المزدحم أمامها، ولكن يبدو جليًّا أن ابتسامةً ارتسمت فوق محياها، لم تفكر في طرح سؤالها ثانية، وكانت المفاجأة أنها توقفت قريبًا من المطعم إياه، وبعد لفٍ ودوران استطاعت أن تجد مكانًا لسيارتها، مجرد أن توقفت السيارة وعلى الفور وجدتها خارجة ودعتني للخروج وأغلقت سيارتها.

- شوف يا عمو، أنت تعتبر ضيفًا في مدينتنا.

- كلام سليم، والمطلوب؟

- أن تكون ضيفي.

- أين؟

- لنأكل الكوارع سويًا، أو ما يطلقون عليها فواكه اللحوم.

ابتسمت قائلًا:

- أبو حنيفة قال لا يجوز.

- والسبب؟

- لتوك ناديتني عمو فكيف.

أمام إصرارها اضطررت إلى أن أوافق على كل قراراتها، أكلنا وانطلقنا، سلمت أمري تمامًا لها، لكن لم أنكر لها حاجاتي الماسة إلى أن أحبس بكوب الشاي الثقيل؛ فهي عادة مكتسبة منذ طفولتنا، وأفضلها بالطبع المصنوع فوق ركية النار في الخلاء، تلقائية حديثها وبساطتها مشجعة لي لأن أتحدث بحرية وأريحية مطلقة، فمجرد أن ذكرت الشاي المصنوع في الخلاء وفوق النار، تتواصل وتتحدث عن الحرية والانطلاق والمتعة بما وهبه الله للإنسان، فانطلق لساني يقص عن حياتي الريفية، ربما كنت كاذبًا في بعض الكلمات، فالتغيير قد لحق بالقرية أيضًا وتجاوز أحيانًا حدود المعقول، لكن لا مفر من محاولة رسم صورة جميلة أنتمي إليها، وكما يقولون: "اضحك الصورة تطلع حلوة"، مع ضحكتها الشبابية الجزلة المبتهجة تسكنني وتنتقل إليَّ السعادة بالإيحاء، لم نستقل السيارة فقد عثرنا على مكان لها بصعوبة، أولى بنا تركها وكما قالت:

- لنشرب الشاي ونعود نستقلها للعودة.

منذ زمن طويل وأنا عاشق للتنزه في طرقات وسط البلد، زحامها وتنوعها ومعروضاتها دائمًا كانت مثيرةً لي ومحببة، حتى وصلنا

إلى مقهى يعكس علو شأن مرتاديه، أشارت إلى المكان فأومأت برأسي مستجيبا لمطلبها، تقريبًا هي من رواده، أسرع النادل بزيه الخاص وبرباط عنقه محييًا لها ومنحنيا، فألقت إليه بتحيتها وسألته:

- عمو قادم من قِبَلي، يرغب في أن يشرب كوب شاي معتبر ابن ناس.

قالتها بلهجة مغايرة للمعتاد منها فلم أتمالك نفسي من الضحك، متعة الحوار مع الذكاء المتقد المنبعث من رؤيتها وكلماتها، تناوبنا الحديث، وأكثر ما هالني ما رأيت من اكتظاظ المقاهي بصورة غريبة بالشباب من الجنسين، الجميع يتناوبون الضحكات ورشف المشروبات، أما تدخين النارجيلة فقد أصبح سمةً مميزةً ولم تتخلف الفتيات عن الركب، فكنَّ أكثر شراهة في تدخين الشيشة، أصبحت فتحات أنوفهن وفمهن كفتحاتٍ تنفث الدخان بكثافة غريبة كشكمانات السيارات المتهالكة القديمة، ولكن يبدو أنهن اعتدن عليها فلا سعال، بل لقد استقدم أصحاب المقاهي أنواعًا من التبغ تنتج المزيد من الدخان وتستمر لفترةٍ لا بأس بها ترضي غرور الشباب؛ وخاصةً الفتيات، الزحام على أشده والأماكن الفارغة في المقاهي قليلة، نستشعر أنا وهي ونحن نرصد تلك الظاهرة أن كل الشباب في المقاهي، تسألني عن الوضع في المدن البعيدة والنائية عن القاهرة، الظاهرة تستحق الدراسة فعلًا؛ ففي مدينتنا البعيدة عن القاهرة الشباب في المقاهي والشوارع، صورة استفزازية وخاصة ما ينشب من صراعات ومشكلات متعددة، نتسأل عن الأسباب والدوافع، نبدأ

في سرد وتسجيل الأسباب: هل نشأت تلك الظاهرة واستشرت أثناء ثورة يناير وما أعقبها من أحداث؟

تلك حقيقة ولا مهرب منها، أقص عليها أنني أتيت للقاهرة في تلك الآونة، فأنا مقتنع بأن تقوم ثورة على أوضاع فاسدة، والصمت جريمة، والشباب غالبًا هم من يدفعون الثمن، فالمستقبل لهم والغد ملكهم، نستعرض كثيرًا من الحوادث، تعترضني بسؤال مباغت:

- يبدو أنك مع الثورة.

- كما يقولون: معها بالباع والذراع، حتى...

- حتى ماذا؟ لا أفهم ما تقصد من وراء كلمتك.

- أنا موافق على الثورة ومع كل إنسان مظلوم يطالب بحقه ولو كان ضدي، لكنني ضد حرق أو تدمير ممتلكاتٍ خاصةٍ بالدولة.

تسألني وهي ترمقني بنظراتها المرحة:

- انقلبت ضدها؟

- بالطبع عندما أشاهد الشبان يثأرون من المجمع العلمي بنهب كتبه وحرقها، ثورة حرق كتب أو سرقتها، يجب أن نتوقف جميعًا هنا، سألت نفسي من وراء تلك الأحداث؟ المصيبة لم أعثر على إجابةٍ شافية لما يدور في مخيلتي، أعرف الكثير من الإعلاميين والكُتَّاب الذين يبايعون الثورة ويندون بالفساد والمحسوبية والرشوة، منهم فعلًا الصادقون بنسبة مائة في المائة، ومن يشكك في نزاهتهم مخطئ.

صمتُّ ولم أدر أنها أخرجت ورقةً وقلمًا وراحت تسجل بعض النقاط في أجندتها الصغيرة، نظرت إليها وعلامات الاستفهام بادية على وجهي، قالت:

- علينا أن نسجل الكثير من الأشياء قبل أن يطويها التراب، لقد أثرتَ أهم ما أثارني أنا أيضًا، لقد استغربت كثيرًا، لماذا أخذ الشباب موقفًا ضد المجمع العلمي؟ ربما كان ملكًا لأحد الفاسدين، ربما ضم بين أروقته هاربين من القانون.

لا أملك نفسي من الضحك وأقول:

- ربما بين صفحات كتبه إشارة عن اللصوص.

بجدية بالغة ترد:

- أتمنى أن نتكلم في هذا الموضوع باستفاضة لأنه يشغلني حقيقةً، لا أعرف له سببًا.

أضحك أنا وتعود إليَّ تلقائيتي في الحديث:

- لقد حاولت وغُلِبَ حماري.

انتظرت لأسمع وقع كلماتي عليها، لم تتبدل ملامح وجهها بل صارت أكثر جدية، كيف أكسر جمود الموقف فاستطردت قائلًا:

- يا أستاذة، أنا رجل فلاح وعقلي حتى اليوم في حيز التطوير، أنتِ أدرى بتلك الأشياء مني فليتك تريحين قلبي المتعب وتفهميني ما عجزت عن فهمه.

حاولْت أن يكون حديثي معها خفيفًا يحمل البهجة والمرح في أثناء كلماته، لكن للأسف ظل وجهها يحمل من الجدية الكثير، ردت قائلةً:

- المثقف الذي ينفض يديه من قضيةٍ قد تؤدي إلى حرق بلده خائن بكل ما تحمله الكلمة، من ينتظر هناك وهو جالس يتسلى بقزقزة اللب، عيناه تريان النار المتقده ولا يشارك ولو بكلمة يستحق الضرب بالنار، ينتظر حتى يرى في الآخر من المنتصر ويعلن فورًا مؤازرته ويدَّعي الكثير من الأشياء الباطلة والأفعال

التي لم يشارك فيها، هل تعلم أن أكثر المثقفين يملكون القدرة على الخيانة والمداورة والمناورة؟ شأنهم شأن النخبة في كل الأوطان الموبوءة بداء الثورية الكاذبة، فالنخبة غالبًا تسعى لكسب المزيد على حساب من ولصالح من، كل هذا ليس مهمًا، ما يدخل جيوبهم وما يزيد في أرصدة حساباتهم وخاصة في البنوك الأجنبية.

تجابهني وتطرح أسئلتها، ومحاولة كاذبة مني لرسم ابتسامة:

- كم رصيدك في البنوك؟

- كثير.

ضحكت وبعد أن استرددت أنفاسي إثر تنهيدة لم تطل أستكمل:

- يا أستاذة كلنا في الهم أهل، وكل الأمور دخلت في بعضها وخُلط أبو قرشٍ على أبو قرشين، لا أعرف من الصادق ومن الكاذب، في ليلةٍ وقريبًا من هنا وأثناء الثورة إياها، وجدت مقهى من المقاهي القريبة من هنا، في وسط البلد تقدم الأكل والشرب للثوار بلا مقابل، حاولت أن أعرف من هو صاحب الفضل والكرم الحاتمي الذي يفعل ذلك، كأنه سر من الأسرار العليا للدولة، أغلبهم لا يفصحون عن اسمه، وكانت المفاجأة إن عرفت أن هذا الشخص من أثرى أثرياء البلد، وعرفت إنه هو ومعه البعض من أشباهه هم الدافع لحرق المجمع العلمي، بل صرفوا مكافآت، إنها النخبة في مجتمعنا من الأثرياء والمثقفين، نخب خائنة وما زالت تركب وتجلس فوق كرسي السلطة؛ فهم متلونون بطبيعتهم، ليس غريبًا، وكما يقولون الثورة تأكل أولادها.

متعمدًا أحاول أن أثير فضولها قلت:

- القدوة يا أستاذة، لا أعرف على من نلقي باللوم، شعب ثقافته من أغنية بلا معني أو اختلاف ما يتلقاه من ثقافةٍ صانعوها مبهورون بأنفسهم وقدراتهم، يتناوبون تقمص أدوار البطولة، آه من إعلامٍ مسموع ومرئي أو قدوة كل خيالاته أنه الأفضل والأعلم، وتاريخ يكتبه مؤرخ يخدم السلطة، أفعال غالبة يندى لها جبين الإنسان، أين الحركات التنويرية وكيف نحارب ضلال الفكر يا أستاذة؟

تغتصب ابتسامة.

- كفي الله المثقفين شر القتال.

لا إراديا تتقاذف الكلمات من فاهي:

- إذًا لنصمت ولنترك النيران تأتي على كل الأخضر واليابس، أشعر بأنه مشروع استعماري بصورة استبدادية مرسوم بعناية فائقة، وهم مجرد دمى متحركة والخيوط في يد من يقف خلف الستار، لهم حق لأن يسموها حظيرة الثقافة.

نقترب إلى حد ما من القناعة بأن كل هذا وليد ثقافة متضاربة هزيلة، هناك استعمار خفي ولكن كيف؟ بأيدي المثقفين، نرصد من الأحداث القديمة منذ المد الثوري في عهد عبد الناصر، ولماذا لم تظهر الثروات المختبئة؟ حتى الشركات كلها تخضع فكرها لمفهوم استعماري، فظهر البترول في بلاد تتقرب للمستعمر بصورٍ مختلفة، كان على من يجابهون أن يتحملوا الفقر وعدم اكتشاف ثروات بلادهم، الاستعمار وكما قال غاندي: "سيعود إليكم ولكن بصورة جديدة"، كالثعابين تغير ثوبها مع كل وقت، أما نحن فبلا ثقافة أو هُوية نستقي منها قوةً وملاذًا أمام الطوفان.

طال حوارنا واستعرضنا الكثير من الأفكار، وكان أكثرها بالطبع الشباب وكيفية استغلال تلك الطاقات المعطلة، خاصةً أبناء الطبقة الوسطى ممن لا يملكون مكانًا في الساحل الشمالي أو ممن يتعلمون من خلال منظومة التعليم المصرية وليسوا من أبناء الجامعات الخاصة أو الخاصة جدًّا أو جامعات أوروبا والبلاد الغربية.

أقص عليها أنني من شهرٍ مضى دعاني أحد عشاق المسرح وهو يطلق على نفسه عبر الفيسبوك: "أمير الجنوب"، يستحق فعلًا الإمارة لتألقه وفكره الجميل، قادم من أقصى جنوب مصر (كوم إمبو) وتقلد منصب مدير عام إدارة المسرح، دعوته كانت لرؤية مهرجان قام بالإشراف عليه لفرق الهواة من نوادي المسرح على مستوى الجمهورية، عقد المهرجان في مسرحٍ مهجورٍ منذ فترةٍ طويلةٍ وتم تجهيزه لاستقبال هذا المهرجان، مجهود يشاد به لعمل غير عادي، لمدة أسبوع كامل أحضر شبه يوميًا عروضًا لشباب وعشاق المسرح في مسرح السامر بالعجوزة، يقولون إن الشباب لا يقبل على رؤية الأعمال المسرحية التي تعكس فكرًا وكنت أحيانًا أؤيد مقولتهم، في تلك الأيام لم أجد مكانًا لقدم في المسرح، شباب قادم بمحض إرادته، قادم ليشارك ويتعلم ويتثقف، أين العيب؟ هل العيب في القائمين على الثقافة ومن يضعون صورهم تحت صورة الوزير أو السيدة الوزيرة؟ وأعمال نهايتها الحجرات المغلقة لا يشاهدها إلا أقل القليل من البشر، أما الميزانيات والأموال التي تصرف على تلك النخبة من عاملين ومشاهدين فحدث ولا حرج، الشباب هم الغد وهم الثورة وهم الغد إن كنا نبتغي الغد.

كانت صحبة الأستاذة (رشا) من الأشياء المحببة التي حظيت بها في الآونة الأخيرة، اجتمعنا على أفكار واختلفنا وحاولنا التقارب، لكن كان شغلنا الشاغل هو الشباب والبحث عما يشغله والاستفادة من تلك الطاقات المعطلة التي أصبحت مهمومة بالجلوس على المقاهي وتدخين النارجيلة، ماذا يعملون؟ وكيف يتكسبون ما يساعدهم على الإنفاق؟

تعددت جولاتنا من مكان إلى آخر في القاهرة الكبرى، كانت صاحبة فضل فاصطحبتني في سيارتها، في الأماكن الراقية من التجمع الخامس للثالث، لمدينة الرحاب ومدينتي، وهناك أيضًا الشيخ زايد و6 أكتوبر، بل إنها استطاعت أن تتجول بنا في منتجعات الصفوة ولعمري ما وضعت قدمي داخلها، جلسنا وكان علينا المشاركة بقدر الإمكان، أما القاهرة الكبرى فقد حظيت بالنصيب الوافر وخاصة أماكن وسط البلد أو حتى المناطق الشعبية.

وجاءت الكورونا.

أصاب الذعر العالم، لم نكن بعيدين عن الأحداث، انطلقت الأبواق محذرة عبر أجهزة التواصل الاجتماعي أو عبر الجهاز الإعلامي، وكانت الأوامر صريحةً بغلق المقاهي، الامتناع عن تدخين النارجيلة، وارتدى الغالبية الكمامات تخوفًا وحذرًا.

مضى أكثر من ثلاثة أشهر ولم أقابل الأستاذة رشا، أشعر بحنين غريب ناحيتها، لقد تركت أثرًا جميلًا في أفكاري ورؤيتي، لن أكون مبالغًا إذا قلت إنها صاحبة فضل في أفكار كثيرة راودتني خلال تلك الفترة، حقًّا من ينكر للأنثى فضلًا فجرم يرتكب، أقول الفضل ولا أخرج بعيدًا عن ذلك، تعودني الذاكرة فأتذكر تلك

الجولات في ربوع القاهرة فقط، أجد نفسي مدفوعًا إلى التفكير في الشباب وأفكار الغد.

عدد الجامعات في مصر 26 جامعة حكومية، ونفس العدد من الجامعات الأهلية، بالإضافة للعديد من المعاهد الخاصة.

أرسم خريطة مصر أمامي، أنا زرت أغلب مناطق مصر من الجنوب أسوان مرورًا بكل مدن الصعيد وصولًا إلى الإسكندرية ومنها غربًا حتى السلوم، ومن منطقة العوينات والوادي الجديد، وأعبر قناة السويس فأذهب إلى جنوب ووسط وشمال سيناء، ومن بورسعيد أتحرك بمحاذاة قناة السويس حتى الإسماعيلية ومنها للسويس، ثم أنطلق إلى محافظة البحر الأحمر، كل الأشياء موضحة على الخريطة التي تعمدت أن أقوم بتكبيرها لتأخذ مساحة سطح المكتب كله.

أتذكر مقولة صاحب كتاب شخصية مصر وعبقرية الزمان والمكان، قالوا إنه قتل واختلفت الأحاديث عنه لكنها لم تختلف عن عشقه لمصر وترابها، آه وألف آه على عُشَّاق طمرهم التراب، رحمك الله دكتور (جمال حمدان).

لم أنس رؤية هذا الإنسان صاحب الفكر الثاقب وأنا أكتب كتابي أو روايتي بمعنى أصح "الطريق إلى الوادي المقدس"، وكانت رؤيته أن يتم تعمير سيناء وفق الأفكار القائمة ساعة الحروب؛ فلكل جيش رءوس كتائب، فإنا كنا في حاجة فعلًا إلى التعمير، من كل محافظة من محافظات مصر، لنعتبرها رأسا من رءوس الجيش، فتأخذ كل محافظة من محافظات مصر نصيبها من سيناء وتبدأ عملية تنمية من خلال المحافظة نفسها بشبابها وبإمكانياتها المتاحة، بالطبع لم يؤخذ بأفكار الرجل.

أتطلع للخريطة التي قمت بتكبيرها فغطت مساحة سطح المكتب كله، أتأملها وأدور حول المكتب من مختلف الجهات، وأسبح في خيالاتي، أرى جموعًا محتشدة من كل محافظة من محافظات مصر، أتخيلها في البداية عمال السخرة قديما عندما سحبوهم من شتى البلاد لتنفيذ مشروع قناة السويس، أو شعب مصر منذ محمد على باشا وهو يقودهم في حربٍ بعد ما تأكد له أن الجندي المصري ووفقًا لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام هو خير جنود الأرض، فيقود هذا الجيش في معارك يكتب له النصر فيها، تتخوف الدولة العثمانية بل يصيب الرعب أوروبا نفسها، لكن أمحو تلك الفكرة من رأسي، نحن لسنا في حالة حرب، لكن أمامنا معركة في التنمية لنعود بمصر بوجهها الحضاري الذي افتقدته نتيجة للعشوائيات التي انتشرت في شتى ربوع البلد، أرتدي النظارة الحديثة، وأواصل الدوران حول الخريطة، أحدد عواصم المحافظات وأضع علامة عبارة عن دبوس رأسه بلون محدد، يخرج طلاب الجامعات بصحبة الأساتذة ومن يرغب في ذلك، دعوة أطلقها أنا عبر عاشق مصر الذي يتمني التطوير لمختلف المناطق في بلدنا، قال أو كما أشرت من خلال الخريطة أن تمنح كل جامعة تابعة لمحافظة عشرةِ آلاف فدان على شواطئ البحرين الأحمر والأبيض أو حول بحيرة ناصر أو البحيرات المختلفة، يمكن أن تختلف المساحة من موضع لآخر حسب المتاح والممكن، وتمنح كل جامعة أيضا مبلغًا من المال لا يقل عن مليار جنيه، ونطلق للمفكرين من السادة الدكاترة كيفية تنمية أرض تلك الجامعة في المناطق الجديدة الواقعة على شواطئ البحر، بالطبع ستختلف الرؤية

وبالطبع سيصيب الجميع الاجتهاد ومحاولة السير على درب السياسة المتبعة في البلد كلها، ربما تبدأ جامعة باستغلال الطاقة الشمسية في تحلية مياه البحر كخطوة أولى للتعمير، أو التفكير في استزراع جزء من المساحات المملوكة لهم، ربما يفكرون في نقل كلية الهندسة والعلوم هناك لتكون بؤرة لفكرة تصنيع سفن صيد أسماك صغيرة، لا مانع أن يفكروا في عمليات تصنيع للأسماك أو تعليبها من خلال مصانع صغيرة، فليأت من أراد من الشباب الطموحين، سيعمل لنفسه وغده من خلال أسهم تتناسب وحجم العمل الذي قام به، ربما يفكر أحد رؤساء الجامعات في إنشاء قرية سياحية ولكنها ذات إمكانيات محددة لتستقبل من أراد من أبناء الجامعة أو أهاليهم، ربما في منطقة تتواجد الطفلة الخاصة بتصنيع الأسمنت وتقوم في ذهنهم محاولة إنشاء مصنع ولو مشاركة مع جامعة أخرى، فجامعات المنيا وبني سويف وأسيوط وسوهاج وقنا وجنوب الوادي، نصيبها المحدد مثلا الموازي لطول المحافظة على شاطئ البحر الأحمر، لا مانع من قيام اتحادات على نمطية الاتحادات الفيدرالية أو الكمفيدرالية على النمط السياسي المعتاد، أدور حول المكتب وأعكس الدوران وأشاهد جموع الطلاب وكأنها مسيرة لمشروع قومي لا يختلف كثيرًا عن مشروع السد العالي، هل هناك أي موانع تمنع من إقامة حفلات السمر والبهجة والسعادة للجميع؟ أما جامعات الدلتا كالإسكندرية وكفر الشيخ والمنوفية والمنصورة وبنها ودمنهور ودمياط والزقازيق وطنطا، كل تلك الجامعات فالمناطق الممنوحة لهم ستقع على شاطئ البحر المتوسط، الرمال السوداء والتعدين والسياحة وتحلية مياه

البحر، سيكون فكري قاصرًا والأفضل في تلك الحالة الاستعانة بعقول مصر المجتهدة والحاصلة على أفضل الدرجات العلمية سواءً من مصر أو من خارج مصر، عليهم أن يشحذوا هممهم ويشمروا سواعدهم ويقترحوا، فمؤكد فكري قياسًا بفكرهم سيكون قاصرًا، أما جامعات بورسعيد والسويس والعريش وقناة السويس فمعروف وظاهر للعيان بأنهم سيحاولون استغلال أقرب السواحل إليهم ومنها على البحر الأبيض أو خليجي السويس والعقبة وامتداد قناة السويس.

لا يا سيدي لم أنس جامعات القاهرة وعين شمس أو جامعات الأزهر في مختلف ربوع مصر، المهم أن توزع الأرض الممنوحة لكل جامعة في المنطقة الأقرب لها، وكذلك جامعة الوادي الجديد.

أجلس على الكرسي الضخم وألقي برأسي إلى الخلف وتغمرني سعادة غريبة وكأنني حققت كل تلك الأفكار في الواقع، فماذا سيكون الوضع بعد مرور خمس سنوات وربما عشر؟ هل سيصبح هناك امتداد عمراني وثقافي في تلك المناطق؟ هل ستشهد تلك المناطق ثورات وتجديدات وتفتح آفاقًا جديدة للغد؟

مياه محلاة باستخدام الطاقة الشمسية، مزارع جديدة وتراعى فيها الاستهلاك القليل في المياه، لكل جامعة أسطول للصيد ومصانع تعليب للأسماك، مصانع لزيوت الزيتون أو تخليله وكذلك بالنسبة للنخيل، أما القرى المنشأة فتقوم على تصنيعها كليات الجامعة كلٌ حسب تخصصه، يا حبذا لو كانت مساكن سابقة التجهيز لتسهيل عمليات الانتقال.

حلم غريب ينتابني، أفكار فيها من الجنون وربما أكذب وأدعي بأن فيها من العبقرية، الحقيقة وعلى عدم نكرانها أن الأستاذة والإعلامية الرائعة رشا لها دور كبير، فكرنا سويًّا في كيفية الاستفادة من الطاقات المعطلة للشباب.

ستكون مباريات في التعمير ولا مانع من مسابقات في تلك الجامعات الجديدة والتي هي امتداد للقديمة، مباريات في كل أنواع الرياضات وبالطبع سيكون أغلبها الرياضات المائية، لا يأتيني النوم بسهولة وأشعر بأن الصداع الذي يلم برأسي كفيل أن يذهب بما تبقى لي من عقل، أظن أن الأفضل أن أذهب بمحض إرادتي إلى مستشفى الصحة النفسية، متأكد من أنهم سيحتجزونني هناك، مع هذا لم أستطع أن أنسى أو أخلع من رأسي تلك الأفكار، أحمد الله بأن ابني وابنتي أكرمهما الله ولكل منهما بيته وأولاده، أما تلك التي تحملتني بكل جنوني فأحاول ألا أشغل رأسها بتلك الأفكار، تشعر كثيرًا بمعاناتي فتسهر كثيرًا على راحتي، إذًا فالواجب عليّ أن لا أقلق منامها بأفكاري، عليها أشياء كثيرة في البيت، لكنها بأمانة حريصة كل الحرص على حجرة مكتبي، فمنذ أن تركت الخريطة فوق سطح المكتب ما زالت تتربع في مكانها، أنا أواصل كتابة الأفكار حتى صغتها كلها فيما يقترب من خمسين ورقة من الحجم الكبير.

لم أنس بالطبع أن أعرض على الجامعات إمكانية أن يصيغوا أفكار مشروعهم، وإذا شعروا فيه بإمكانية النجاح فالتوجه للبنوك الوطنية للمساعدة والمشاركة، ربما الغد يحمل إمكانيات الكسب حتى ولو كان قليلًا.

كنت مشتاقًا جدًّا لمقابلة الأستاذة رشا، سألتها عن مدى إمكانية مقابلتها، شعرت بأنها سعيدة لكوني في القاهرة، وتركت لها أن تضرب الموعد المناسب، وفي حرص وخوف من كورونا، جلسنا متباعدين وهي عمومًا معتادة ذلك، فلم يكن هذا نتاج للكورونا ولكنه اعتياد منا، تبادلنا الحكايات، وأفضت في حديثي عما أَلَمَّ بي من جنون، ألقيت بتبعية ما حدث لي عليها، فماجت في الضحك ولكن بلا شفاه تُرى مجرد أصوات البهجة المنبعثة من تحت الكمامة أو القناع، لكنها بدت سعيدة وأنا أقص عليها أفكاري المجنونة، عندما سلمتها الأوراق وطلبت منها أن تتفحصها في هدوء وتقرأها في روية، وأنا هنا في القاهرة لأسبوع كامل للعرض على طبيب أيضًا.

عندما قابلتها ثانية وقبل عودتي للبلد قالت:

- مشروع قومي مائة بالمائة.

- حرام عليكِ، ارحميني وتوقفي عن تضخيم المسائل فأنت السبب، أنتِ من طيَّرت النوم من عيني لثلاثة أو أربعة أسابيع، أنت السبب، كنت أنوي أن أسلم نفسي لمستشفى المجانين، ذهبت إليهم في العباسية فرفضوني تحت مسمى الخوف، وقالوا: "ربما تكون هاربًا من الكورونا وتريد الاختباء عندنا"، أقسمت لهم أني صاغ سليم ولكن وقعت الفأس في الرأس ولا مفر، أدعي عليك بماذا يا ست الستات؟

- لأجل خاطري لا تسفه من أفكارك، أقسم لك أن كبير البلد لو قرأ هذا الكلام لن يتركك.

- سيقبضون عليَّ وهذا مؤكد، اسمعي يا بنت الناس، أنا رجل كبر وصارت رجله والقبر، وليس عندي نقابة تدافع عني ولا

شيء، وعضوية اتحاد الكتاب التي معي لا تسمن ولا تغني من جوع، والناس في النقابة مشغولون، المشاكل فوق رأسهم كثيرة، إن كنت مقتنعة بهذا الكلام اعتبريه هدية مني لكِ وقدميه سيادتك.

- ماذا تقول؟

- ما سمعتيه، لا تأخذي الأمور بحساسية.

- مستحيل، هذه أفكارك أنت.

- يا سيدتي ليست لدي حصانة، أنا في البلد بالكاد أركب حمارة، وهذا كان منذ زمن، اليوم أنا لا أقدر على أن أسند طولي، لو ركبتها سأقع من فوقها ككيس سباخ تعمي رائحته الخلق، يا سيدتي قدميها باسمك، وإن يكون فيها خير سأكون أسعد الناس بأني فكرت في شيء يخدم البلد، وإن كنت ميتًا فأمانة قراءة الفاتحة على روحي.

كانت ثائرةً وحاولَت ولكنني تركت لها الأوراق برمتها ووليت هاربًا بعد وداعها.

انتظرت بل نسيت الموضوع برمته، وعشت حياتي في ظل كورونا والحمد لله لم يكن سجنًا بالنسبة لي ولكن كانت فرصة لاستعادة قراءات بعض الكتب التي تركت أثرًا في نفسي، أو محاولة أن أرى وأقرأ الجديد مما اشتريته من كتب ولم تسنح الفرصة لي لمطالعتها، لا أشكو الرتابة والملل، يدفعني شعور جميل وغريب؛ ففي رحلة نهاية العمر من الأفضل أن تجتر ذكرياتك، أن تستغفر ربك فيما أقدمت عليه من أفعال مخزية وتحمد الله أن من عليك بالستر ولم تصبك فضيحة يتندرون بها عليك، الجميع

يتكلمون عنك وربما يرصدون عيوبك ولكن يصيبهم الخرس ساعة وجودك بينهم، ربما حياءً.

جاءتني رسالة الأستاذة رشا بعد انقطاع دام قرابة شهرين عبر الواتساب، طوال الفترة السابقة بأمانة كنت أشتاق إلى الحديث معها ومحاورتها أو الاطمئنان عليها، أشعر بأن أفكاري فيها بعض المراهقة المتأخرة فأحيد وأبتعد مخافة أن ينتابني هذا الشعور، وأحيانا أفسر عدم حديثها بأنها كما يقولون: "غمة وانزاحت"، يعني ما صدقت وتخلصت من رؤياي وأفكاري الشاطحة في أغلب الأحيان، حاولت ألا أكتب إليها، قررت بأنني لن أتصل بها حتى لا يفسر بصورة أخرى، قررت ونفذت، أنظر إلى الرسالة وأجدها طويلة، إذًا على في البداية أن أتناول كوبًا من الشاي، فأنا لا أقرأ ما تكتب مرة واحدة، فأعيد القراءة أكثر من مرة، تجذبني كتاباتها الراقية عمومًا في أي موضوع، وهذا ما تم بالفعل، فقد أعدت قراءة ما كتبته أكثر من مرة، كانت البداية المعتادة الاعتذار عن عدم التواصل في الفترة السابقة، وبعد تردد طال قررت أن تكتب إليَّ وبكل صراحة، تتمنى مني ألا أفسر كلماتها بأي محمل، تقسم بأنها صادقة في كل كلمة صاغتها وأرسلتها.

لم أجد مفرًا من الضحك بصورة تقترب من الهستيرية، جاءت زوجتي وابتسامتها تسبقها وتبدو على ملامحها السعادة لكوني أنطلق في الضحك بهذه الصورة، نظرت إليَّ وأنا مستمر في ضحكاتي، فلم تسألني عن السبب وإنما اكتفت بسؤال:

- أعمل لك فنجان قهوة؟

- سأكون شاكرًا جدًّا لك.

همَّت بالعودة ولكنني استكملت حديثي:

- يفضل أن يكون ذلك قبل أن أذهب للمورستان، أهناك قهوة أم هي ممنوعة؟

نظرَت من جديدٍ وابتسمت فقد اعتادت لحظات جنوني اللحظي التي تطل عليها من خلال أفعالي وأقوالي، جزاها الله خيرا تحملتني بكل عيوبي.

علينا أن نعود لما كتبته الأستاذة رشا، أقرأ ثانيةً وأتخيل ما كتبته ماثلًا أمامي:

«والله لم أدخر جهدًا، حاولت أن يُعرض مشروعك من خلال تلك الجريدة؛ فهي تعتبر في مصاف الجرائد الكبرى، بعد أن ترددت أقدمت، كانت زيارتي لرئيس التحرير في فتراتٍ متباعدة، أنا أكتب أحيانًا في الجريدة، الرجل آفاقه رائعة ومستمع جيد، شرحت له ما قدمت لأجله، لكنني لم أذكر اسمك، استحسن الفكرة بل اهتزت رأسه كما يبدو طربًا وسعادة، حاولت أن أعتذر عن المشروب ولكنه صمم، تبادلنا حديثًا وديًّا، وعدني بأنه سيقرأ الموضوع بعناية بالغة فالفكرة استهوته، فرئاسة الجمهورية نفسها أكثر ما يشغلها المشاريع القومية، وخاصة إن كانت متعلقة بالشباب، وأظن تلك الفكرة تجوز أن نضعها في نصاب المشروعات القومية الكبرى، إنها فكرة تخرج وتبتعد عن الأفكار التقليدية، لا أنكر منك كانت سعادتي مفرطة، وأخيرًا سيخرج مشروعك إلى النور، مشكورًا ضرب لي موعدًا بعد أسبوعٍ بالتمام والكمال سنناقشه سويًّا وقبل عرضه على الجهات العليا، مثل هذه المشروعات يجب أن نحتاط فيها بالسرية، سننتظر رؤية الكبار.

كنت أحسب الساعات وليست الأيام حتى أتى يوم مقابلة السيد رئيس التحرير، وذهبت يحدوني أمل كبير، بل فكرت فيما سأكتبه إليك.

اختلاف بين بين المقابلة السابقة وهذه المقابلة، ما كدت أجلس حتى بادرني:

- هل تعرفين هذا الكاتب؟

تذكرت أنني لم أذكر اسمك ولكنني لم أنس أن اسمك مسطور في نهاية الموضوع؛ بل إنني أضفت إليه سيرتك الذاتية والموضوعات التي قمت بنشرها من قبل، تهت للحظة وردني وهو يكرر سؤاله ثانية:

- نعم يا سيدي.

- هل تعرفين أنه عنده ربع طاقق؟

- نعم!

- المفترض أن يودعوه مستشفى الأمراض العقلية، هذا إنسان مجنون رسميًا، يا أستاذة كل من نشر بعض العته في كتاب نسميه الأديب الكبير وعملاق الفكر والثقافة، نظام الثقافة الجماهيرية ونوادي الأدب والجمعيات الثقافية، كل من هب ودب معه قرشين ينشئ مؤسسة ويطلق عليها اسم ثقافية، ومسابقة وبعض الدكاترة الفارغين يقعدون فوق منصة وهات يا كلام، طبعا يرفعون من شأن صاحب الكتاب، يعقدون مقارنة بينه وأكبر كتاب البلد ممن سبقوهم، ليس عيبًا أن يطلق عليه ألقاب متعددة، وأمام العدد الذي لا يتعدى أصابع اليدين داخل القاعة، ويا قلبي لا تحزن، يأتي واحدٌ صحفي لا له في الثقافة ولا الكتابة يقوم بعمل تغطية للحدث الثقافي الكبير، كل واحد له

نصيب في هذه الليلة الغبراء، يكفي أنهم ضمنوا العشاء في مكانٍ رائحة المشويات فيه ترد الروح، يا أستاذة أنزلوا الناس منازلهم، الذي ضيع هذا البلد أن كل واحدٍ يظن أنها ميراث من خلفوه، يا أستاذة أنا أشهد لك أنك دائمًا حريصة على أن تكتبي بفهم وعمق يجبر قراءك.

طبعًا لن أكذب عليك، لقد بليت ولم أنطق بكلمة، الرجل ما صدق وفتح بوابة الكلام المخزن داخله من سنين، حاولت أن أسترد وعيي، امتدت يدي لكوب الماء لأرطب حلقي الذي جف بلا كلام، فأنا أحاول الكلام، بعد جهد استطعت الخروج من صمتي وخرسي فقلت:

- سيادتك تعرفه؟

- الحمد لله لم أتشرف بطلعته البهية.

- إنسان بسيط و...

- يا أستاذة فوقي، لا تجعلي مشاعر النساء تسيطر على أفكارك، تعتبر إحدى المصايب أن الإعلامي تدفعه العواطف في الكتابة، يا أستاذة احذري عواطفك.

- هل رأيته؟

- يا أستاذة الحمد لله، لم أره ولا أريد.

- من أين أتيت بهذه الأفكار عنه؟

- هذا آدمي ليس وراءه غير الكتابات المجنونة مثله تمامًا، هذا من المفروض أن يحاكم ويسجن سجنًا انفراديًا وليس وسط الناس.

أنا أحاول أن أعرف ما هي الأسباب الحقيقية وراء أخذه هذا الموقف المتجني عليك، ولكنه كلما سألته هب ولعن الثقافة

والأدب، حتى إنني تذكرت كلمة (جوبلز) النازي: "كلما سمعت كلمة الثقافة تحسست مسدسي"، كان المطلوب مني أن أفك هذا اللغز، فأنا عرفتك جيدًا وعن قرب، يشهد الله بأنك مثال للنضج والثقافة والفكر، أقسم لك بأنك كنت سببًا في أن أتريض في ساحات الأدب الحقيقي برؤيتك ومشورتك الرائعة.

ربنا هداه وشرب قهوته الخاصة، ولأول مرة يبتسم، كنت أتمنى أن أطرح سؤالي المحشور في حلقي، لقد كانت البداية مبشرة جدًّا فرفع من شأن صاحب الفكرة وهو من أطلق عليه مشروعًا قوميًّا، فلماذا هذا التغير المريب؟ قبل أن أطرح سؤالي قال سيادته:

- هل قرأت مسرحيته المجنونة التي تطرح فكرة غزو أمريكا؟

- أول مرة أسمع عنها، هل قرأتها سيادتك؟

- صدفة غريبة، أنا أشكك في أغلب المثقفين في البلد؛ فأي واحدٍ منهم يتمنى أن يلحق مكانًا في سفينة نوح قبل الطوفان، أغلبهم يفكرون بهذه الصورة.

- هو منهم؟!

- هو أسوأ وأضل، يطالب أن نفكر في غزو أمريكا، مجنون حقيقي!

- كيف؟ أنا أول مرة أسمع عن تلك الفكرة.

- قال يا سيدتي هم قد غزونا من فوق الأرض، ونحن علينا أن نغزوهم من تحت الأرض، تعرفين كيف؟ أم ليست عندك فكرة؟

- والله لا أعرف.

- حسنًا، في المسرحية عرض فكرةً مرعبةً تثير الفوضى.

- كيف؟

- من خلال الأنفاق نحدد موقع أمريكا على الكرة الأرضية، وبآلات حفرٍ عملاقة ننطلق من مكانٍ بعيد بل يعد نائيًا، نبدأ ونواصل العمل، وبقياسات دقيقة نصل إلى الموقع ولكن من تحت الأرض، ساعة أن نصل نخرج تباعًا، حتى نسيطر تمامًا على منطقة كبيرة من أمريكا، ويوم يكتشفون الحكاية تكون الفأس قد وقعت في الرأس، هؤلاء أنبتتهم الأرض وأبناء الأرض ولا مفر أمامهم سوى الرضوخ للأمر الواقع، هذا طبعًا بعد أن تصير الأنفاق سرًّا عسكريًّا للقيادة والمفاتيح بيد القيادة، على من يريد الهجرة بلا أوراق أو تصاريح أن يدفع للقيادة وستتولى عملية سفره عبر الأنفاق.

لا إراديا صفقت بيدي وقلت:

- فانتازيا رائعة.

- نعم، ماذا تقولين؟

- فكرة رائعة، نعم فيها جنون وعبقرية، صحيح أنه بين الجنون والعبقرية شعرة.

- لا يا سيدتي ليس عبقريًّا، هذا شخص مجنون، وأبصم لك بالعشرة وأؤكد جنونه، يا سيدتي هذا بقدرة قادر غير الموضوع، الناس الذين اقتنعوا بالفكرة راحوا وبدءوا التنفيذ على أمل الوصول إلى أمريكا، و"نقبهم طلع على شونة".

- كيف؟

- لم يصلوا.

- وماذا بعد؟

- وصلوا إلى مدينة الذهب الفرعونية القديمة، الذهب فيها هو والتراب واحد، عيناك إن نظرتِ لن تري آخر جبال الذهب، قعدوا

وفكروا، كلهم مجانين خارجين من رأس مجنونة، اتفقوا على أنهم ليسوا بحاجة إلى السفر والهجرة إلى أمريكا، لماذا يسيطرون على البلد والذهب هنا لا ينتهي؟ فكروا في العودة والسيطرة، الأموال معهم ستكون بالكوم، لا توجد سوى طريقة واحدة، بالمال ينشرون الفوضى، يشترون البشر ويتسللون واحدةً واحدةً حتى يسيطروا على البلد بالكامل، ما رأيك؟

- فكرة رائعة.

- أيضًا؟ لا فائدة منك.

- فكرة العمل المسرحي لا بأس بها.

- يا أستاذة الله يرضى عنك، هذا تنظيم دولي ممول لنشر الفوضى عن طريق الكتاب ومن يدعون الثقافة للسيطرة على البلد، حاولي أن تنسي هذا الموضوع تمامًا.

امتدت يده بالأوراق لي، ألقى تحذيراته البالغة فوق رأسي».

كلماتها التي صاغتها وهي تبدي أسفها البالغ، أستشعر بأنها كتبتها وهي باكية حزينة جدًّا، كيف أهون عليها الأمر؟

كتبت إليها:

«معالي الإعلامية الراقية،

قالوا: "قليل البخت يلاقي العضم في الكرشة"، هل تعرفين هذا المثل البلدي يا ابنة الأصول الراقية؟ أنا يا أستاذة معتاد على ذلك، ولكنني لست من النوع المستسلم؛ فقد جاءتني يومًا فكرة، نتيجة عمليات الإرهاب في بلادنا، فقد صدرت الأوامر بعدم زراعة القصب، بموجب ذلك سيتحول مصنع السكر القريب منا لسكر البنجر، كان القصب ينقل من خلال سككٍ حديدية تابعة لشركة السكر، نفضت الشركة يديها من ملكيتها للسكك

الحديدية وسلمت الأمر للمحليات وعليها التصرف، سرى الخبر وأسرع كل من له ظهر من أهالينا ليستولي على ممتلكات السكة الحديد القديمة، بل شرع الناس في سحب القضبان الحديدية في المساء وبيعها خردة، أما الفلنكات الخشبية فكانت طعمًا للنيران للتدفئة وغيرها، تلك الخطوط تمتد لما يزيد عن مائة كيلومتر، وكالعادة جاءني الجن الذي يركب رأسي، فسألني:

- ما رأيك في تلك الحكاية؟

طالبته أن يبتعد عن رأسي وكفى الله المؤمنين شر القتال.

- هل تعرف من استولى على تلك الأراضي؟

المهم راح يوضح لي أن من قاموا بالاستيلاء عليها وبإيعاز ممن يتقلدون السلطة، حددهم بالاسم، ونبهني بأنها ملكية عامة وليست خاصة، طالبني بأن أوقف تلك الأفعال المنكرة، وأن أكتب وأقول ذلك وهذا أضعف الإيمان، لقد وهبك الله نعمة الكتابة، فأكتب مطالبًا الحق، أنت تطالب بحق عامٍ وليس خاصًا، فالأولى أن تستغل تلك السكة الحديدية كطريق بديل بدلًا من الطريق الزراعي الضيق والذي تعددت الحوادث عليه ونزيف الدم شبه اليومي، يتركني وأنا أفكر، ما قاله شيطاني حقيقة، طريق جديد بين خمسة مراكز من مراكز المحافظة، لتتولاه المحليات أو السكك الحديدية، إنها خدمة كبيرة لأهل بلدي وناسي.

جلست أكتب وأقلب الصفحات وأعرف بداية الخط من أين ونهايته لأين، كم تعداد المسافرين الذي يمكن من خلاله نقلهم يوميًّا، صغت كل هذا بصورةٍ أعتقد أنها كانت جيدة، كان على القيام بالخطوة التالية، السيد السكرتير العام في

المحافظة يعرفني شخصيًّا، غالبًا أدخل مباشرة إذا كان غير مشغول، كانت تلك تعليماته لمدير مكتبه، والذي يشجعني أكثر أن الرجل يضع أحد كتبي التي أهديتها إليه فوق مكتبه؛ فماذا يعكس هذا؟ نعم قلة هم من يحترمون الكتاب والمثقفين الحقيقين، لهم الحق طبعًا فقد اختلط الحابل بالنابل كما يقولون، وكل واحد ادعى أنه كاتب، أخذتني النشوة، إليه ذهبت وحملت فكرتي المصوغة التي ستفيد الكثيرين، كان استقباله المعتاد ببشاشته، عرفت أنه سيرافق السيد الوزير المحافظ في جولة ميدانية، أسرعت وشرحت له السبب، أخذ مني الأوراق، واعتذر للظروف، شكرته كثيرًا فهو لا يتأخر عني.

شيطاني عاد إليَّ قائلا، أعطوا الحرامي مفتاح الكرار، سألته ففهمت أن السيد السكرتير العام مستفيد ولكن بصورةٍ غير مباشرة، وكذلك ابن عمه الذي يتقلد منصبًا أمنيًّا كبيرًا فقد وضعوا أيديهم على مساحات واسعة، إن لم يستفيدوا بها اليوم فاحتمال قائم ببيعها في الغد.

طردته شر طردة، قلت له:

- لقد فعلت ما بوسعي وهذه قدراتي وإمكانياتي.

عندما عدت لمعالي السكرتير العام، استقبلني ببشاشته المعهودة، مجرد أن سألته عن شكواي، دار في كرسيه المتحرك وأطلق ضحكةً طويلةً وقال:

- أنت لا تجد شيئا تفعله، يا أستاذ أنت إن ربيت بعض الكتاكيت ستكسب من ورائهم،

هذه حكاية لا تخصك، اهدأ قليلًا، أشعر أن كثرة القراءة لحست مخك، انس وحاول العيش .

وكما قلت في البداية: " قليل الحظ يلاقي العضم في الكرشة ".

مع خالص أمنياتي لك».

كانت الغرامة جنيهًا وقرشًا

يلقبونه بالبصير رغم أنه كفيف، نفهم أحاديثه بصعوبةٍ بالغةٍ فقد طارت كل أسنانه ولم يتبق إلا القليل، ولكنني أصغي بانتباه بالغٍ وأتتبع كل أحاديثه وحريصٌ ألا تفوتني جلساته، يسوق الكفيف سخرياته من متعلمين هذا الزمان، حتى كتاباتهم المبعثرة مثل نبش الفراخ، يعقد المقارنات بين التعليم زمان وتعليم هذه الأيام، الفرق بين القلم الكوبيا والقلم الحبر المعتبر الذي يتباهى الكل به، وكأنه يرى ويدعي العمى، حديثه لا يخلو من الدعابة الدائمة، أنا لم أدر بنفسي رغم أنني حريص على أنه في مجلس الكبار ليس عليك سوى الإنصات والاستماع، تجرأت وفي شجاعة لا أدري كيف هبطت عليَّ، حاولت أن أدافع عن متعلمين زماننا.

ينفجر الكفيف ضاحكًا وقائلًا:

- انت ابن مين يا ولد؟

لم أستطع الرد ولو بكلمة واحدة، كرر سؤاله ولكن هذه المرة وجهه لجاره في المجلس، مال عليه جاره وهمس في أذنه بكلمات الله أعلم بمضمونها.

يضحك بصوتٍ مسموعٍ ويرفع رأسه وكأنه يستنجد بالسماء، لثوانٍ معدودات ويهز رأسه ويواصل الضحك المعتاد منه.

يصمت ويصمت المجلس الذي ضحك لمجرد أن أطلق الكفيف ضحكته، عندما يضحك فتيار كهربائي يدغدغ جنبات الجالسين، فيرتعشون ويموجون بالضحك، يستطرد الكفيف وابتسامته لا

تفارق محياه، يميل برأسه يمينًا ويسارًا ويهز عصاه التي لا تفارقه وهو يقول:

- الله يرحم أبوك يا ولدي.

لم أنتظر فأسرعت قائلًا:

- أبويا حي يرزق.

متعمدًا أقول ذلك حتى يصاب بالتردد أو تتغير لهجته أو يظن أن النسيان أصابه،

وكعادته وردوده السريعة:

- ولا تزعل يا واد الله لا يرحمه يا ابني.

وبلهجة عتاب:

- ليه بس يا مولانا؟

- في الحقيقة خلف أبوك لا هيورد على جنة ولا نار.

- حرام يا مولانا.

- حرمت عليك عيشتك انت وهو، يا واد ده أنا مخي زي الدهب وقريت ربع كامل يوم وفاة أبوك، بس أبوك عمايله وأفعاله كانت توقع اللقمة من الحنك، أبوك طول عمره كداب، وكان كدبه حلو ولسانه زي الفرقلة، حتى أمك اللي هيه بمكانة بنت أختي شربت المر من كيعانها بسببه، كان راجل ألعبان.

يضحك والجميع ينصتون.

- أمك طيبة من فرع طيب، هتقولي وإيه لم الشامي على المغربي، هرد وأقولك القسمة والنصيب يا ولدي.

- أبويا كان طيب وكان بيحبك كمان.

- صح هو طيب وأنا بحبه، دا أبوك من فجره في يوم كان نفسه في اللحمة، طلب من أمك تدبح ديك بلدي وبعرف مايل على جنبه،

وأمك قالت كله إلا الديك، الفراخ لو قعدت من غير ديك عمرها ما هتبيض ولا هترقد على بيض، وطبعًا كان دماغه مصيبة سودة ممكن تقول سم مركز، طلع بره البيت يا دوب ساعة ولا اتنين واللي في دماغه في دماغه، رجع وعملهم على الغلبانة أمك وقعد يضرب كف على كف، والغلبانة تسأله: "هو فيه إيه؟" يقولها: "خلاص مابقاش فيه بكرة"، الولية تسأله وهو يردد نفس الكلمة، إيه يعني مفيش بكرة؟ من كتر سؤاله صرخ في وشها وقال ربنا يتولانا برحمته، طلع بره باب البيت ورجع تاني بعد ما قفله بالضبة والمفتاح، ومن فُجره وبصوت واطي أقنع أمك أن القيامة هتقوم بكرة، الولية خبطت على صدرها وكانت هتصرخ، قفل خشمها بإيده أصل الكلام دا في نص الليل، بقول لكم دماغه سم وقدر يقنعها، إن أفضل حاجة تدبح وتاكل وتوكل العيال، وأمك ولا هي الكسلانة دبحت ونتفت وسوت وقومتكوا من عز النوم، ولا قيامة قامت ولا تحزنون وكل لغاية ما كانت معدته هترشق، كان هيموت فيها.

الناس تسأله كده يا راجل كنت هتموت من التخمة، يضحك ويقول: "الموت شبعان أحسن ألف مرة من الموت والواحد جعان ونفسه في اللحمة".

يضحكون، أنا سمعت الحكاية فعلًا، وكانت أمي -رحمها الله- في غاية الطيبة تصدق كل كلمة يقولها، المهم أن كل الموجودين اجتمعوا على أن يقص عليهم حكاية حبه للتعليم.

بعد أن يناوله أحدهم كوب الشاي والآخر يشعل له سيجارة، يربع قدميه ويرشف بصوت مسموع الشاي ومعه يحبس بأنفاس من السيجارة.

ويقول والجميع منصتون:

- من سنوات طويلة كانت الحكومة تحاول أن تكون حريصة على تعليم الشعب؛ ففي المدرسة الابتدائية يتكرر غياب التلاميذ فيضطر الناظر إلى أن يبلغ العمدة الذي لا يتوانى ويرسل إنذارًا معتادًا إلى والد التلميذ المتغيب، ويحذره، ففي حالة تكرار غيابه عليه محضر وغرامة لا تتعدى جنيهًا وقرشًا واحدًا، وغالبًا يتخلف التلاميذ عن المدرسة، الحقل والماشية ومساعدة الأب أهم من تحصيله للدروس والعلم، على التلميذ أن تتخشن أنامله فإن الأب يخاف أن يصيب ولده الخمول من استخدام القلم، وتصبح لينة رقيقة لا تتحمل رفع الفأس أو تحمل لساعات الشمس في أيام الصيف أو تخاف جني القطن، ربما تصيبها الجروح من شجيرات القطن الجافة الصلبة أحيانًا، لكن على مدى السنوات الست في المرحلة الابتدائية لا يزيد عدد من واصلوا التعليم للمراحل المتقدمة للتعليم عن عشرين في المائة من تعداد أبناء البلد رغم كل التحذيرات.

يذكر الكفيف أبي (خَلَف) رحمه الله، بعد أن يدعو الله أن يسكنه فسيح جناته، وكيف منع ولده البكري من الحضور للمدرسة، أرسل العمدة في طلبه بإنذار وغرامة وهو لا يملك شيئًا، تصنع المرض وراح يرتجف ويتحدث بخرافات ويدعي أن الجن هو من منعه وعلى العمدة أن ينذر الجن قبل أن ينذره، أقسم العمدة على الملأ بأنه إن لم يحضر سيرسله إلى نقطة الشرطة لتتولى أمره، بالطبع هناك في نقطة الشرطة سيبيت ليلة أو ليلتين، سيشرب المر في هاتين الليلتين، ستنهال على رأسه الأوامر بأفعال متعددة ولا يستطيع ساعتها الإفلات من براثن العسكر،

سيقوم بنقل الماء ويملأ القدور والأواني الفخارية، بعدها يرش الطرقات ويروي الحديقة الصغيرة الكائنة أمام مسكن الضابط، ويقوم بسقاية خيل العسكر ويكنس روثها، وغالبًا يقوم بمسح دورة المياه، خَلَف مصمم بأن المرض يملكه والجن هو من منع ولده من الذهاب للمدرسة، نذهب لخلف ونحذره ونعلمه أن العمدة أقسم ولن يتراجع، ونقول له:

- كف العمدة خفيف وحتى إن كانت يده ثقيلة فهو واحد منا، كف العمدة أرحم من كفوف العسكر والمخبرين، ممكن يعلقوك في فلقة، الضابط يحمل خيزرانة وأحيانًا كثيرةً كرباجًا سودانيًّا نقع في الزيت أيامًا طويلة، لسعته والقبر، الكرباج يترك أثرًا على الجسد يعيش طول عمر الإنسان، العمدة أبونا وتاج رأسنا.

بضرب يومها خلف كفًا بكفٍ ويردد:

- الله يلعن أبو التعليم واللي جابوه، جاب لنا الفقر، العيال لا هتروح غيط ولا هتطلع بهايم، ما كفاية الكُتَّاب والشيخ (صالح) بياخد في الموسم ربع غلة ويعلمهم ويحفظهم كلام ربنا مش كلام العبد، آه يا خراب بيتك يا خلف، جالك الموت يا تارك الصلاة.

وقعد يندب أمامنا، هو كل همه إننا نتوسط عند العمدة، وكلنا قاعدين حوله مصممين على أن يذهب للعمدة، نطالبه بأن يذهب بمفرده فالعمدة ليس غريبًا ولا يحب الوسائط؛ فعقاب العمدة لن يخرج عن المعتاد، وأجسادنا اعتادت على كفيه وقدميه وحتى عصاته فيها الرحمة، وفي النهاية ستبيت في بيتكم، ستنام بين أولادك ولن تبارح منزلك، هذا أفضل مائة مرة من

من القبض عليك وترحيلك إلى النقطة ومنها يمكن أن تصل للمديرية والله أعلم أين سيكون آخر ترحالك؟

تدور كل تلك الحكايات برأسي، يؤكدها أكثر من إنسان ممن عاصروا تلك التجارب والحكايات، وما وجه الغرابة، هل ما يحدث بالأمس تغير عما يحدث اليوم؟ فاليوم ليس هناك ما يمنع ضابط الشرطة من اقتحام منزل المواطن أو الفلاح عمومًا والعبث بكل محتوياته، ولا يستطيع إنسان أن يقف في وجهه، وبكل سهولة ويسر يستطيع أن يثبت أنه يحمل تصريح نيابي بالتفتيش، ويعطي نفسه الحق بالإضافة إلى ذلك الصفع والضرب له أو من يحتمي به، لا يهتم وهو يضربه أمام زوجته وأولاده.

الثقة معدومة بين المواطن ورجل الأمن، الفلاح لم يتغير الحال عليه كثيرًا؛ فمنذ عهود العثمانيين فالمماليك فالبشوات وهو يتلقى الصفعات تباعًا، في صدر الفلاح والمواطن البسيط وجع يداريه ويحاول أن يقصيه.

عندما يضحك الكفيف ويواصل:

- لف خلف نفسه بلحاف قديم متهالك وراح مع الغفير إلى دوار العمدة، عندما ذهبنا وراء خلف لدوار العمدة، استقبله العمدة بترحابٍ بالغٍ قائلًا:

- أنت مريض؟

يومها يرد خلف وجسده تتملكه رعشة مصطنعة وتصطك أسنانه:

- ومقام جنابك صح.

فيرد أحد الخفراء قائلًا:

- بيهلوس يا سيد الناس.

ولكن العمدة يعرف أن خلف ألعبان، هو يعرف تمامًا خفة ظله أيضًا.

يصفها بأنها أجمل اللحظات عندما كانت تجمعهم سهرات المساء، يقسم الكفيف أن الإمام كان السبب الرئيسي في كل ما يلحق بخلف من مواقف، الإمام جالس لا يملك نفسه من الضحك، يحاول أن يرفع التهمة التي ألصقها به الكفيف أو ينفض يديه منها، أخيرًا ومن بينهم هناك من يؤكد صدق مقولة الكفيف، فلا يجد الإمام مفرًا وهو يقول:

- كانت أيام براح والقلوب لسة بخيرها، الدنيا اتغيرت يا أولاد، والتعليم مابقاش ببلاش، النهارده اللي معاه فلوس يتعلم وياخد أكبر الشهادات.

ثقافة: ارفع رأسك يا أخي

لا تنس نصيبك من الدنيا.

عندما أجلس مع جدي في الحقل، أحب أن أتجاذب أطراف الحديث معه، اليوم هو من بادرني بالسؤال:

- أنت شيوعي؟ يعني كافر والعياذ بالله.

- أستغفر الله العظيم يا جدي، ألا تراني حريصًا على الصلاة في المنزل، وكلما سنحت الفرصة أذهب إلى المسجد؟

يطول الحديث وأقص على جدي أننا في الجامعة قد نخرج في مظاهرات نطالب بحقوقنا، ونطالب بالديمقراطية وحقوق الفلاحين والعمال ونطالب بالمساواة بين الجميع، إنها الثقافة والاشتراكية التي يطالبنا بها الدين، متباهيًا بنفسي أشرح له أنني أقوم بإخراج عمل مسرحي في الجامعة يتحدث عن الحقوق لكل أفراد الشعب، رغم أنهم يقفون لي بالمرصاد إلا أنني ماضٍ في عملي ولم أهتم بكل ما يقولونه، وأظل في حديثي المملوء بتصنع القوة والشجاعة، فأصف له أنني حتى لو دخلت السجن فأنا صاحب قضية وهذا يعد وسامًا على صدري، يتململ جدي في جلسته على حافَة المجرى المائي الصغير وتمتد يده للحشائش بجواره فيقتلعها من جذورها، أشعر بأنه متذمر من حديثي.

فأطرح سؤالي:

- ماذا يضايقك يا جدي؟

وأنطلق من فيه حديث طويل أتذكر منه:

- يا شيخ اتوكس أنت واللي علموك، هيا دي آخرة الثقافة اللي رجليكم حفيت علشانها؟ كل واحد فيكم مفكر إنه عارف الدنيا وخابرها من يوم ربنا ما خلقها.

المهم إن جدي صار مثل هويس مياه وانفتح، مصمم على أن يعقد موازنةً بيني وبين (عبد الرحمن) ابن الشيخ (مرعي)، يقول بحماسٍ زائد:

- الشيخ عبد الرحمن النهارده بيخطب الجمعة وبيتكلم من القرآن والسنة، وانت بتحفظ كلام لا يودي ولا يجيب، وحتى الصلاة بتصليها وقت ما تحب، والشيخ عبد الرحمن سنه من سنك اليوم باليوم، والجمعية اللي بتتبني هو السبب فيها وبيقولوا إنه فتح باب خير على البلد كلتها، والناس كلها بتميل تبوس إيده.

لا أقاطعه وأتركه ليقول ما شاء، بعدما ينتهي أقول:

- عارف يا جدي تمن الأرض اللي هتتبني عليها الجمعية كام؟

بكل بساطة يجيب:

- أيوه، مش أقل من تلاتة مليون جنيه.

- طيب جابها منين؟

- قال فاعل خير اتبرع بيها للبلد.

- مقابل إيه؟

- ابتغاء وجه الله.

- النهارده الشيخ عبد الرحمن بيدور في البلد مع الراجل صاحب المتبرع وبيدعي له في الانتخابات الجايه، صح؟

- أيوه صح وكل ناس البلد هتنتخبه وأنا أولهم.

- اشتراكم بفلوسه!

أنا يدوب خلصت الكلمة وجدي هب في وجهي وراح يكيل لي السباب ويتهمني بأنني فعلًا شيوعي كافر، ولا بد من أن أرجع إلى الدين، ويا حبذا لو ذهبت للشيخ عبد الرحمن ووضعت يدي في يده.

قديمًا جدي كان معجبًا بكلمة: "ارفع رأسك يا أخي"، كان يقولها بفخر واعتزاز غريب، هل أذكِّره بها؟ سيقول بلا تردد: "كل وقت وله أدان".

ليس جدي فحسب ولكن الغالبية أصبحت رهن إشارة الشيخ عبد الرحمن.

مدرس بيقلب رزقه

من داخل الاستوديو وحدوتة معتادة تعكس مدى الإحباط في النهوض بالعملية التعليمية من خلال تجسيد الفكرة دراميًّا، وبعد عرض العمل كالمعتاد يتم حوار بين طرفين، الطرف الأول مفدم البرنامج وصاحب فكرته، ومن يتصل به من خلال الهاتف.

د. (يوسف) محاور استطاع في أكثر من برنامج إثبات وجوده في تناول الموضوعات الشائكة كما يطلقون عليها، البعض يتهمه بأن موضوعاته كلها زائفة ومفبركة والحوارات غالبًا متفق عليها من قبل من خلال الكنترول الخاص بالبرنامج، د. يوسف لا يهتم كثيرًا بالقيل والقال، لكنه يترك دائمًا رسالةً يؤكد فيها أن موضوعاته كلها وليدة اللحظة من خلال الحوار عبر الهاتف.

يجلس د. يوسف في مقعده المعتاد في الاستوديو الذي صممت تجهيزاته ليبدو بسيطًا مقنعًا، تسقط الإضاءة عليه ويصنع ابتسامته الواسعة المعتادة.

يوسف: أعزائي المشاهدين، طبتم مساءً أو سعدتم صباحًا، الحمد لله حتى هذه اللحظة

لم يتصل أحد تيلفونيًّا، يبدو أننا سنعرض حلقة اليوم مباشرة على أمل أن نلتقي

بعد الحلقة في نقاشنا المعتاد.

لم يكد ينتهي من كلمته ودق جرس الهاتف، يضحك يوسف ويرفع السماعة.

يوسف: آلو مين معايا؟

صوت: أونكل يوسف؟
يوسف: أيوه هوه يا حبيبي.
صوت فتي ويبدو على نبراته الدلع المبالغ فيه.
صوت: أنا شادي، انت مستر جو، وأنا اسمي المشهور به شو.
يغتصب يوسف ابتسامةً ويبدو هذا جليًّا على وجهه، فتلك طبيعة عمله.
يوسف: أهلًا مستر شو أو الأستاذ شو.
شادي: مابحبش الألقاب أنا زهقت منها ومليت، دادي الكل بيناديه الباشا حتى مامي،
أنا عايز أعيش حياتي عايز أهرب من الدنيا دي كلها.
يوسف: موافق يا شو، انت بكره عايز تبقي إيه؟ أمَلَك إيه؟ طبعًا انت طالب.
شادي: قول أمل دادي أمل مامي، أملي أنا بح يعنى كبر، أنا في سنة أولى ثانوي، عايز أبقى نفسي، أبقى شو، يا سلام لو ممثل مطرب موسيقي لاعب كورة.
يوسف: بالدراسة وصقل الموهبة ممكن تبقي كل حاجة، وكل ما تعبت ودرست تبقي قيمة وممكن تحقق طموحاتك.
يقاطعه ويبدو على حديثه الضجر؛ بل الحدة تنعكس في لهجته.
شادي: أتعب ليه؟ دادي موفر كل حاجة، شركات عمارات، بدل الشقة عشرة، بدل
الڤيلا تلاتة أربعة، للمشتى للمصيف والناس بتقول تتعب كتير تاخد مقلب كبير.
يوسف: لازم يكون معاك شهادات.

شادي: الMoney يا باشا، الفلوس تشتري كل الشهادات من بلدنا ممكن ومن بره بلدنا، كله عارف كده، [ضاحكًا] ولا انت مش عايش في الدنيا، أنا بأقولك عايز أعيش وعايزأبقى نفسى.

يوسف: انت شفت برنامجنا قبل كده؟

شادى: شفته ونفسي أنسى حكاية الراجل اللي حارب في إبريل ولا أكتوبر أظن أكتوبر، والناس قدرته حرام، كنت حاسس إنه بيتسول إنهم يقدروه، أنا زعلت عليه، تقريبًا كان مدرس، والناس بتموت ليه؟ وليه يحارب؟!

يوسف: تعرف إيه عن ستة أكتوبر يوم العبور؟!

شادي: سمعت كلام في المدرسة وطابور الصباح، بس عمومًا إحنا مابنسمعش حاجة لا في الطابور ولا الفصول كله بيتكلم، وفيه جزء من قصيدة شعر في كتاب اللغة العربية المدرس الخصوصى في الدرس قال احفظوها، جزء منها حدده وجت في الامتحان وخلاص والموضوع خلص يا باشا.

يبدو الضيق والتذمر على وجه يوسف ظاهرًا جليًّا أنه يكتم غيظه ولكن يواصل.

يوسف: يا شو يا ابني الحرب دي رفعت رأس البلد كلها، فيها استشهد الالآف من الشباب

يا حبيبي، اقرأ واعرف تاريخ بلدك، ذاكر دروسك تبقى نافع لبلدك وتقدر تخدم مجتمعك وناسك.

صرخ الفتى.

شادي: انت صورة من دادي، كلكم كلام يا أونكل، أنا لو ليا نفس أبقى مهندس من غير

شهادات هعمل شركة ومهندسين تشتغل عندي، طبيب هعمل مستشفى استثماري كبير وأجيب دكاترة وأنا رئيس مجلس الإدارة إيه تاني؟ الفلوس ومعايا، وعمومًا لو زهقت هعمل قناة فضائية وأجيبك تشتغل عندي.

ويضحك الفتي ويستكمل: بس مش مقدم برنامج، أنا بفكر أخليك مطرب وتغني اللي أنا عايزه،

ممكن تغني بوس الواوا.

تتحرك عينا يوسف يمينًا وشمالًا ويبدو أنه وصل للذروة من الضيق.

يوسف: زي ما بيقولوا يا أستاذ شو، أول القصيدة كفر، هتخسر فلوسك اللي دفعتها، صوتي ولا صوت البوم والغربان وبالذات في المغنى، والحمد لله صوتي مش حلو.

شادي: كل شيء ممكن، وعمليات التجميل في كل حاجة حتى الأحبال الصوتية هنغيرهالك، بس انت انوى وماتعيلش هم، كل اللي بتشوفهم من مطربين وممثلين كل ده بعد التعديل، انت سيب ليا نفسك، أنا عارف أن ظروفك المادية تعبانة.

يوسف: أرجوك أقفل الخط.

ضحكات الفتى تبدو عالية.

شادي: أونكل انت زعلت؟ عمومًا أنا عامل بارتي جميل أنا وأصحابي وهربانين بعيد عن الناس كلها ولابسين اسود في اسود، بنرقص ونغني وممكن نبكي ونعمل كل اللي عايزينه بعيد عنك وعن دادي واللي زيكم، تحب تيجي؟ باي باي يا روح قلبي أنا فكرت عندك روح رياضية، عمومًا لازم تفهم أنا كرهت الفلوس،

دادي ما بيفكرش إلا فيها وعنده كتير، أنا كل فكري أزاي أهاجر بره البلد باي.

يضع يوسف السماعة وينظر إلى المشاهدين متحدثُا:

- سمعتم شو، شو عايش ف بلدنا ولا بره بلدنا شو، مايعرفش العبور، شو هيبقى رئيس مجلس إدارة شركة هندسية،

مستشفى ولا مدرسة خاصة جدًّا ولا ولا...

آفاقه فين؟ بيفكر إزاي؟ مؤكد يعرف ويسمع عن منظمات إنسانية متطوعة للمساعدة في مجاهل الدنيا لكل البشر، والأمثلة كتير: الأم تريزا، أطباء بلا حدود.

أولادنا مخطئين ولا احنا؟ فكرهم فين؟ مؤكد حفلات الساحل الشمالي ولا في حتت متخبية جوه البلد، ولا مناطق مهجورة ممكن قصور ولا معابد قديمة ويمارسوا طقوس غريبة ويرفعوا رايات أغرب.

يسترد يوسف وعيه ويواصل الحديث:

- الواجب مزيد الاهتمام بأولادنا، أولادنا غصب عنهم، لازم نسمعهم ونكلمهم ونشوف دماغهم فيها إيه، الناس الغريبة بتلعب في دماغهم ويصوروا الدنيا ليهم بشكل تاني، بيخربوا عقولهم، المثل البلدي بتاع أهلنا وناسنا بيقول: "ابني ابنك ولا تبني لابنك".

يسترد يوسف هدوءه المعتاد، يتجه للمشهدين بالحديث مع ابتسامته المعتادة:

- آسف أعزائي المشاهدين، سيادتكم فاهمين النظام المتبع في حلقاتنا، بنعرض حلقة

ونحاول التعليق بعدها، ولكن ما حدث اليوم إن المدعو شو استطاع أن يخرجنا عن
المعتاد، وعموما نتمنى إن شو كمان يشاركنا وربما نستفيد من أفكاره. عمومًا حلقة اليوم بيحكيها لينا الأستاذ مختار الويشي، نلتقي الآن والحلقة الأساسية.

ظلام

الاستديو مجهز بصورة بسيطة يعكس شكل مكتبة مدرسية، يبدو هذا جليًّا من خلال عبارة
ترحيب مكتوبة على أحد الجدران المقابلة: "مدرسة المستقبل ترحب بزوارمكتبتها"، يقف الاستاذ مختار بجوار أحد الأرفف وعلى المنضدة المجاورة له حقيبة جلدية مفتوحة، تخرج منها مفروشات وملابس حريمية ورجالية، يفرد قميصًا نسائيًّا داخليًّا، يحركه في يده، يقيسه على جسده ثم يرفعه بيده لأعلى.

مختار: طقم نوم يزغلل العنين طقم يريح قوي، يخلي ليلكم نهار وحريقة تقوم وأصحاب الحريقة يتبسطوا والكل يدعي للي شعلل النار.

يضع الطقم على المنضدة ويواصل:

التقارير الطبية بتقول تلات أربع الرجالة بيتعالجوا واللي بياخد سفوف من عند العطار واللي واللي.. إحنا هنا بنعرض ونبيع اللي ما يحتاج حبة زرقا وحبة خضرا، ده طبيعي تجربه الست مرة عنين الراجل تزغلل، وترجع الراجل زي ما استلمته يوم الدخلة، يعني الرجاله ترجع زي زمان يوم ما كانت الرجالة لسة بخيرها.

صوت: انت ناسي إنك في مدرسة؟

مختار وهو يضحك: نعم معقل من معاقل العلم، بتعلم وندي دروس وخير صديق في
الزمان كتاب، والكتب مترصصة أهي وزي الفل والتراب حاطط عليها، وكل أسبوع بانفخها وأطير التراب اللي فوقها لا المدرسين فاضيين يقروا كتب ولا التلامذة عندها وقت، عايزين الحصص تنتهي بفروغ صبر قاعدين في المدرسة غصب عن عينهم، أنا أعمل إيه؟ قريت لما اتهريت، مخي طق، عمومًا كل الكتب بتتكلم فى الدين والسياسة والعلم، والدين إنك توفق الناس في بيوتها بالحلال، والسياسة إن الست تدلع جوزها وتنشف جيوبه بمعلمة؛ لإن الفلوس لو زادت في جيب الراجل تبقى بلاء، ويقع الهم فوق راس الست، ولازم تزغلل عينيه علشان ما يشوفش غيرها، يعني تروقه وتسحله أول بأول، ومن ناحية العلم، العلم نور والنور مهم في الضلمة، في النهار ربنا منور الكون، وفي الليل الست نور الضلمة ومشعشعة المسائل الحيوية؛ يعني إحنا ماخرجناش عن النص.

يبتسم ويرفع الطقم بين يديه.

مختار: بص شوف حاجة ببلاش كده ملي عينك يا محروم، قربي يا اللي ناوية، بعد يا حاقد على الصهللة وليالي البهجة والنعنشة.

تدخل أكثر من مدرِّسة تباعًا.

مدرسة 1: بكام؟

مختار: نقد ولا تقسيط؟

مدرسة 1: كده وكده.

مختار: بالنقد مية، بالتقسيط بميتين.

مدرسة 1: حرام غالي.

مختار: وحياتك عندي وغلاوة جوزك دي حاجه ببلاش، اسألي واتأكدي، إحنا معقل العلم والمعرفة هتلاقينا أرخص وأسهل.

بدلال وضحك تشارك في الحديث أكثر من مدرسة.

مدرسة 2: نزل شوية.

مختار: أنزل في إيه وأرفع في إيه ده انتي صوتك بلسم ربنا يكون في عونه.

مدرسة 2: انت بتقول حاجة؟

مختار: أنا ما أقدرش أقول.

مدرسة 2: عمومًا أنا هدفع نقدي.

مختار: ولو ما دفعتيش يا هانم اللي عندك عمره ما يضيع، وكمان فيه أطقم رجالي وارد بره مقاس الباشا، وكله من غير ضرايب ولا جمارك، وعمومًا إحنا بنحب نخدم الناس وبالذات الكبار.

ثم موليًا وجهه للناحية الأخرى وبصوتٍ خافت: الكبار اللي واكلينها والعة، الكبار اللي مايملاش عينهم غير التراب.

مدرسة 2: بتقول إيه؟

مختار: بقول وفيه أطقم ومفارش سراير وسفرة وحاجة فوق الوصف، كمان أطقم شوك وسكاكين ومعالق من أشيك وأحسن المعادن.

محدثًا نفسه بعد أن يظل وحيدًا في الحجرة: هعمل إيه؟ غلب حماري، قلبتها شمال ويمين ومفيش فايدة، أعمل إيه؟ يا خلق هووه المرتب هيكفي إيه ولا إيه بس؟ والدنيا ولعت [مفكرًا] يا دوب شغل بعد الضهر يا دوب يكمل إيجار الشقة، عايز أتجوز يا أهل الخير، قعدت عاطل سبع سنين وحمدت ربنا وجتني

الوظيفة، وقلت باب السماء اتفتحت وأديني في المدرسة قاعد لا شغل ولا مشغلة طول النهار، قلت أقلب رزقي والرزق يحب الخفية والإيد البطالة نجسة، والنواية تسند الزير، والواحد كام جنيه زيادة يساعدوا في المعايش.

يتذكر شيئًا، يبحث في الحقيبة ويخرج علب سجائر متنوعة فيخبئها في أحد الأدراج.

- أغلب المدرسين والعمال بيدخنوا والوزارة مانعة التدخين، وكمان بيخافوا يدخنوا قدام حريمهم في البيوت، بيشتروا السجاير فرط وفي الخباثة من تحت لتحت، وأهه رزق وربنا بعته، الحمد لله أنا عمري ما بعت للتلامذة، ببيع للكبار ولو إن العيال التلامذة بيشتروها بالطاق طاقين من الكشك اللي جنب المدرسة، كنا إحنا أولى، بيقولوا جحا أولى بلحم طوره.

يلا البركة فيما رزق، طب أعمل إيه؟ على رأي عبد الحليم الله يرحمه: بتلوموني ليه؟

مختار: بقول لك إيه يا دكتور يوسف انت اتجوزت؟ عندي لك طقم يشعلل المسائل وجواه ممكن ألف لك كتابين تقراهم آخر الليل، وسلملي على التعليم في بلدنا.

د. يوسف: والآن نستقبل أراءكم ورؤيتكم وما تطرحونه من أفكار.

وقال معالي الوزير

في قاعة الشهيد عبد المنعم رياض، جلس معالي وزير الشباب المصري وبجانبه السيد المحافظ والسكرتير العام للمحافظة وأمين عام الحزب الوطني الديمقراطي، وفي الطرف أمين شباب المحافظة.

تبادلوا كلمات الترحيب بالسيد الوزير، رصونا وأجلسونا في صفوفٍ ربما كان متفقًا عليها قبل حضورنا، كان اجتماع الأمس بالسيد المحافظ، أن نكون مثالًا للحوار الراقي، معروف أن شروط الحوار الديمقراطي المطلوب، ألا نعترض على أية مقولات للسيد الوزير، بل علينا أن نشيد به وبالسياسة الحكيمة للدولة، علينا أن نطيع السيد المحافظ، كان هذا الحديث في وجود ممثل أمانة الحزب، وأمين الشباب.

قال معالي الوزير المفوه:

- الحزب الوطني الديمقراطي حزب تمتد جذوره من مصطفى كامل، إنه الحزب الممثل للوطنية المصرية في أعظم صورها، ومن لا يحترم الحزب الوطني وجذوره لا يستحق سوى الضرب بالحذاء.

ليت الرجل اكتفى بذلك بل مال، خلع حذائه من قدمه ورفعه في وجوه الجميع، أقسم بالله العلي العظيم هذا ما حدث تمامًا، نعم نظرنا لبعضنا ولم نبدِ دهشةً مما حدث أبدًا، فبادر السيد ممثل شباب المحافظة بالتصفيق وتبعته كل العناصر المرصوصة فوق المنصة، وللأسف الشديد صفقنا بحميةٍ وحماسٍ كاذبٍ منافق،

قال لنا أستاذنا المعتاد السجن والملقب في هذا التوقيت بالشيوعي الفاجر:

- من يلعب الدح ما يقولش أح.

اللعب في السياسة يحمل الكثير وعلى من انتوى اللعب والدخول في ملعبها والدخول في جحرها أن يتحمل لدغاتها وأن يتلون مع ألوانها المتباينة، ربما تقذف بك للجنة الأرضية التي تسعى إليها ويمكن العكس؛ فلا تحزن وواصل المسيرة، وكله كذب في كذب.

علينا الطاعة، والصمت واجب في حضور الكبار، لكن لماذا علينا الطاعة؟

أطعم الفم تستحي العين.

أثناء الانتخابات الطلابية، سأكون كاذبًا لو ادعيت الثورية ولفظت وكتبت كلمات الهوى المعتادة في بلدنا، الحقيقة وفي هذا التوقيت بالذات، أغلبنا وأنا بالذات كنا شبانًا بلا هوية، برمجونا بالأفكار الانفتاحية والاستهلاكية؛ ففتحنا كروشنا قبل أن نفتح عقولنا، إنني أنتمي إلى الطبقة الفقيرة في المجتمع، وهناك الأسوأ مني، يعاني أهالينا في تربيتنا وتعليمنا، والظروف الحياتية تحدث عنها ولا حرج.. سيئة لأبعد الحدود.

منا من اتخذ الدين ستارًا ربما يتكسب من ورائه، ذهبت إليهم ورغم عدم قناعتي بالأفكار العنيفة المطروحة، ربما أجد من ورائهم مغنمًا، كان يشاركني في أغلب أيامي أعز أصدقائي، كان مؤمنًا بأهمية الثورة تحت أي مسمى، لتكن تحت مسمى الدين ومنه نكون كسبنا الدنيا والآخرة معًا أليس كذلك؟ أحدثه بما يجول في نفسي، أصف بعضهم بالكذب والنفاق ومحاولة

استدراج البسطاء نحو أفكارٍ وأفعالٍ يرسمونها وأنها هي عين الجهاد، لكنه يدافع عنهم بقوة، يضرب الأمثلة المتتالية عن الأفعال التي يقومون بها، سأكون كاذبًا لو نفيت أفعال الخير التي يُقدمون عليها، ذهبت ورأيت بعيني ما يقدمونه للفقراء والمحتاجين من أبناء الحي الفقير، إنهم يفعلون أشياءً في منتهى الرقي والإنسانية، (أبو أنس) شخصية أحبها مهما اختلفنا ويشاركه المسيرة الشيخ (جمال) الودود المهذب الراقي، يقودان مسيرة الخدمة العامة من خلال الجمعية المنشأة من خلال المسجد الذي أقاموه في الأرض الفضاء بجوار السكة الحديد، بل قاما بالإشرف على مجموعات تقوية للتلاميذ، والمركز صحي لتقديم الخِدْمات الصحية المجانية للمحتاجين.

هذا الحديث في منتصف السبعينات وأواخرها، لم أنس الأحداث المتلاحقة، البداية منذ عام 1974 م وما بعده، وكنت قد شاركت في مؤتمر ناصر الفكري المنعقد في جامعة عين شمس، شعرت الحكومة في وقتها، أن الشباب يتطالون على القامات الكبيرة في المجتمع، تم تصنيف هؤلاء المتطاولين بأنهم الشيوعين والناصريين ومن لا مبدأ لهم، فكروا كيف يخرسونهم وكان الحل بالطبع في استنهاض القوى الإسلامية ودفعها للساحة بكل الطرق، بل فتح المجال أمامهم، وانطلقت الشرارة في ربوع جامعات مصر، لكنهم لم يعملوا تحت مظلة الإخوان رغم أنها نفس الآفاق والأفكار، واختاروا اسمًا: "الجماعة الإسلامية"، الثورة نائمة في رماد الحياة ولما نُفخ فيها بأي صورة اشتعلت، تنامت بسرعة مذهلة، تخوف الجميع وظنت السلطة بأنهم أبنائها وأنها هي التي ساعدتهم للظهور، خلعوا عباءة السلطة عن أفكارهم

وأجسادهم فاقتنع بهم البشر بصورة أكبر، بأمانة شديدة شبه سيطروا على الجامعات المصرية عامة، هل تقف السلطة مكتوفة الأيدي؟ استعانوا بالوزير المخضرم منذ أيام المد الناصري عندما تقلد رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية، كان قد شرب العملية السياسية وتعلم اللعب في أتون نيرانها، ألقوا عليه بتبعية المجابهة وقبل أن يفلت الزمام، فتحوا له خزائن الأموال ليغترف حتى تبحر سفينة أحلامهم في بحر هادئ بل في بحيرة بلا أمواج، أسرع يطوف في ربوع مصر معتمدًا على معارفه السابقة ورجال السلطة الذين يتقلدون المناصب السيادية في محافظات مصر كلها، استقبل استقبالًا حافلًا طبقًا للتعليمات الصادرة من القيادات، تسلل بذكاء بالغ، والله ما أقوله حدث بالفعل.

أُعلن عن الانتخابات الطلابية في الجامعات، وكانت بأمانة شديدة هي الانتخابات الحقيقية التي تجري في ربوع مصر، واعتدنا أن يحاول كل مرشح أن يستظهر ذاته من خلال الإعلان والصور في أفنية ومدرجات الجامعة أو الكلية التابع لها، مجرد الإعلان يحتاج للمال، لا أنكر أنه يكفي القليل لذلك، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة؛ فكلنا أو أغلبنا أبناء للطبقة الدنيا أو الأعلى قليلًا، على الجانب الآخر وتحت مظلة الجماعة الإسلامية زملائنا يترشحون ولا يعيلون همًا، بالطبع الأسهم للأخوة في ازدياد مستمر، بالتالي فقد أصبح فوزهم في الاتحادات الطلابية مؤكدًا بنسبة عالية، رغم أنني وأمثالي لسنا في خلاف مع أعضاء الجماعة الإسلامية ولكننا لا نؤيد الكثير من أفكارهم وخاصة تلك التي تتسم بالعنف، فلم يتورع من يمسكون بزمام الأمور من الإخوة في الجماعة أن يتحدثوا على الملأ بأفكار التعصب ضد الإخوة المسيحيين في

الجامعة وعلى مستوى البلاد كلها، حمل خطابهم التهديد والوعيد، نعم قويت شوكتهم، نتمنى أن نخوض انتخابات الطلاب، لكننا لسنا في تآلف يستطيع أن يحقق النجاح، مبعوثون من قِبل السيد أمين شباب المحافظة يتوافدون ويطالبوننا بعقد اجتماعات مع سيادته، امتنعنا فنحن نعرفه من أمد طال، يجيد اللعب كما يقولون بالبيضة والحجر، علينا أن نتخوف منه وأفكاره، بل توقعنا ما سيفيض علينا به من أحاديث، وقد كان، تشجيع مباشر وغير مباشر لنا بخوض الانتخابات ضد الجماعة الإسلامية، ذهب من ذهب وامتنع من امتنع ولكنه لم يكل في مسعاه وواصل باستماتةٍ غريبةٍ في دعوته، قررت أن أدخل الانتخابات ولكن بعيدًا عن مؤازة الحزب الوطني والسيد أمين الشباب.

نجتمع كعادتنا في المساء، نقضي وقتنا ما بين لعب الورق أو الخروج لشاطئ النيل، علينا قبلها أن نحصي ما نملكه من نقود وهل يكفي ليلتنا أم لا؟ في أغلب الأحيان لا يكفي فنكتفي بالسهر في الهواء الطلق ولا مانع من القليل من التسالي، أما السجائر التي اعتدناها فقد نتشارك أكثر من واحد في السيجارة الواحدة، المهم نقضي وقتنا في سعادةٍ وبهجة، ودمتم في جلسة المساء على الأرض وفوق الخضرة التي تكتسي بها حديقة وكورنيش النيل، نتسامر وبكل التفاهات التي نطلقها نشعر بالمتعة والبهجة ونستمتع بأريج وعطر أبخرة النيل الندية وهدوء الليل، بادرني:

- يا عم من سار على الدرب وصل.

كانت كلمته كفيلة بأن يصمت الجميع وينتظروا ما تسفر عنه أفكار صاحبنا (من نكنيه فيما بيننا بالجربوع)، الحوار موجه لي، قلت:

- قول يا أبو الجرابيع.

- يا عم فكها وتعالوا نلعبها صح وزينا زي الناس، كله بيسافر وبيركب القطر وكله بيوصل للمحطة حتى اللي راكب السبنسة، ياللا نتشعبط.

الجميع صامتون ودهشتهم انعكاس لعدم استيعاب ما يرمي إليه، نعم هو يتوجه بحديثه لي مباشرة، على أن أدفعه إلى التوضيح:

- لسة مش فاهم.

- كبَّر مخك، نوافق الراجل ونشارك ونلعب وياهم ونشوف آخرتها إيه؟

أدركت ما يدور في جعبة أبو الجرابيع من أفكار، لكنني أعرف وبصدق الشخص الذي تقلد منصب أمين الشباب هذا؛ فمنذ سنوات وكنت في المرحلة الثانوية، اعتدنا المشاركة في المنتديات الثقافية منذ أيام منظمة الشباب، أصبحت مسئول شباب المركز رغم صغر سني، لم ولن أنس أبدًا يوم عزموا على عمل حفل تأبين للزعيم الراحل جمال عبد الناصر، اجتمعنا في المقر المعتاد، كل أعدادنا لا تصل إلى ثلاثين فردًا، جلسة لا بأس بها تكلمنا بما فيه الكفاية، بالطبع تقلد صاحبنا منصب القيادة وهو حقه، تكلم وأجاد وأنصت الجميع، تناولنا الغداء وكان طيبًا تشتهيه نفوسنا، وبعد صلاة العشاء كان علينا أن ننهي يومنا وحفلنا، عدد المراكز للمحافظة تسعة مراكز، علينا أن نصرف

بدل سفر لكل فرد ممن حضروا، إنها المرة الثانية بأمانة التي أسرق فيها، وبدأنا، كل مسئول عن مركز يقر بعدد القادمين للحفل ليصرف مستحقاتهم، وكانت أول القصيدة كفر، فقد أعلن المسئول عن أبعد المراكز أن عدد القادمين المشاركين أربعين فردًا، صرف مستحقاتهم وطوى المبلغ في جيبه، لم يقِل العدد الذي ذكره أي مسئول عن أربعين فردًا، دارت في رأسي أفكار غريبة، أنا لم يحضر معي أي فرد لأنني لم أعرف الموعد من قبل بل عرفته عن طريق الصدفة في صباح نفس اليوم، فأسرعت بالحضور وحضرت فعاليات اليوم بالكامل، انتظرت حتى يسألونني عن تعداد القادمين معي للمشاركة، وكنت آخر مسئول يطرحون عليه السؤال، وعندما سألني عن تعداد الحاضرين معي بلا تردد أجبت أربعين فردًا، كيف أتتني الجرأة وكذبت بهذه السهولة؟ أتذكر يومها نظراتهم لبعض بما فيهم السيد الأمين، أشعر أن عيونهم تتهمني باللصوصية، هل أنا الحرامي الوحيد بينهم؟ لكن ما لبث أن ظهر فوق وجوههم البشر والابتسام، من يومها يفسحون لي مكانًا، بالطبع صنفوني كحرامي مثلهم، حاولت بعدها الابتعاد، المهم يومها قبضت بدل انتقال لأربعين فردًا ودخل جيبي مبلغا لا بأس به، لم أسأل أبي عن مصاريفٍ لمدة شهرٍ وزيادة، هممت أن أقص عليهم الحكاية ولكنني أحجمت وصمتُّ.

أبو الجرابيع لم يتركني في حالي ولكن توجه إليَّ بالسؤال:

- إيه رأيك؟ فأنت من تقود مسيرتنا.

وجدت كل العيون تترصدني وتنتظر مني إجابة:

- الأمر شورى.

في اليوم التالي مباشرة ونحن جلوس في شقتنا المتواضعة جدًّا؛ فهي شقة مؤجرة، بعدما جمعنا من بعضنا لشراء طلبات العشاء، جمعنا ما يكفل لنا الشراء بالكاد، واتفقنا فيما بيننا بمن سيتولى الشراء، افتقدنا ليلتها الجربوع، فص ملح وداب، ضربنا أخماسًا في أسداس ولكن غلب حمارنا ولم نستطع أن نتوقع أو نؤكد أين هو؟ أو إلى أي مكان ذهب، هو غير معتاد الغياب من وسطنا، كما افتقدنا خفة ظله وطول لسانه، فمشهود للجربوع عدم سكون لسانه داخل خشمه، بل إننا أرجعنا فقده لأكثر من سن من أسنانه الأمامية إلى طول لسانه وطغيانه على أسنانه فقذف بها للخارج.

كاد الليل ينتصف ونحن ما زلنا متيقظين، دقات عبارة عن دقات فرح فوق الباب، شعور بالسعادة طفح فوق الوجوه، أصابنا الصمت والذهول، صوت قادم، بلهجة معتادة تتسم بالبذاءة عند الغرباء، أما بالنسبة لنا فقد اعتدناها وتبادلناها في سعادة:

- افتحوا بسرعة يا بُلغ.

في صوت واحد صحنا:

- الجربوع.. يخرب بيت سنينك.

تلقى فوق رأسه اللعنات وفتحنا الباب، لم يهتم بكل ما سقط فوق رأسه من شتائم، بدون مبالغة ينفش ريشه كما الديك الرومي، ويقول:

- اتعشيتم ولا لسة يا جزم؟

وراح يخرج من جيبه أوراقًا نقدية من فئة العشرة جنيهات ويشير بها في الفراغ ويقول:

- عشرات حمرا من اللي تدبح.

أصابنا جميعا الخرس، لم ندر ماذا نقول، العشرة جنيهات تكفي الواحد منا بالشهر؛ بل يمكن بالشهرين، ويعيش بها حياةً مرفهةً بمقاييسنا، تصنَّع الدوار وكاد يقع فأسرعنا وأجلسناه فوق الكرسي الوحيد ذو البطانة القطنية التي تبزغ من جوانبه، بعصبيةٍ بالغةٍ يطالبنا بأنه في حاجة للهواء، يقول بأن رائحتنا الكريهة تصيبه بالدوار، هممنا بضربه، انقسمنا على أنفسنا من يضرب ومن يدافع عنه، ولم يمضِ وقت طويل وأصبحنا جميعًا ندافع عنه، سؤال واحد فوق شفاهنا يبحث عن إجابة:

- من أين لك هذا يا جربوع؟

لقد ذهب كما اتفقنا سابقًا، أعلن وفي تريثٍ وحكمةٍ غير معتادة بعد أن دس النقود في جيبه وبالتفصيل الممل راح يقص علينا ما تم أثناء اللقاء بمجموعة من الزملاء والسيد أمين الشباب المبجل، كانت أهم مطالبه أن أكون أنا في الصورة وأنني من العناصر الهامة له، كدت أضحك من مقولة صديقنا الجربوع، لكن الجربوع لا يصمت ويقسم بأنني الأساس وأنني كما يقولون حجر الزاوية، عندما أهم بالضحك يهاجمونني، ويطالبونني أن لا أتخوف فجميعهم ورائي سندًا وعزوة، أيُّ سندٍ ونحن أغلبنا نهرب ونولي الأدبار ولسنا أهلًا للمجابهة، أبتلع هزائمي ولا أتحدث عنها، فكلنا في الهم سواء، تنهيدة بعمق الألم النائم داخلي.

"آه لو يعرفوا إن أن وهو دافنينه سوا، يعني أنا مانسيتش أول عملية سرقة تمت لي وتحت عين وبصر معاليه، أقصد الثانية، فقد سرقت مرة واحدة وأنا طفل مبلغًا من وراء أمي".

يعد جربوع النقود أمام أعيننا، ونحن نتلهف أن نعرف المزيد، تخيلوا مبلغ ثلاثمائة من الجنيهات في يد تلاميذ أكبر مبلغ يمكن

أن يتواجد في يد الواحد منهم فقط خمسة أو ستة، قل عشرة جنيهات.
بدأ جربوع يحدد المطالب ويفندها وكان الشرط الأول أن أذهب أنا لمقابلة معاليه للاتفاق والحديث حول أشياء وبالطبع أهمها الانتخابات، أمامهم جميعًا أعلنت الرفض، يعلمون جميعًا بأننا لا نسير وفق مبادئ معينة ولسنا مؤمنين بقضية نلهث خلفها، إنما نحن شباب نبحث عن أي شيء لمجرد قضاء الوقت والبحث عن السعادة في صور مختلفة كما يصورها لنا فكرنا وقتها، أشبعوني سخرية، لم أسلم منهم وتوالت:
- الله يرحم أهلك، أبوك لو شاف الفلوس دي مش بعيد يقع مايحطش منطق!
- أقرع ونزهي.
أحاول أن أذكر من الأسباب الواهية ما يدفعني للامتناع، هدأت حدة الثورة القائمة عليَّ، طالبوني أن نحسبها بالعقل والمنطق، قال الجربوع ضاحكًا:
- عارف يا صاحبي صاحبك اللي النهارده له شنة ورنة أبوه كان...
رفضنا أن نتحدث بصورة فيها تنابذ وسخرية من الآخرين، فلم يكمل عبارته؛ فجميعنا نرفض أن نجعل من أهالينا مضغة في أفوه الآخرين، وبمعنى أصح أغلب أهلنا ليسوا من علية القوم، فأغلبنا آبائنا ممن يعملون في أعمالٍ بسيطة، صمتنا لكن علينا أن نحسبها بهدوء.
- فرصة وجت لغاية عتبة بابنا ليه نرفضها، يا جماعة حد يرفص النعمة يبقى حرام؟

- يا سيدي هو لا واخد عليك وصل أمانة ولا بصمك بالفلوس، هتخاف من إيه؟

حاولت أن أتحدث بعد كل ما قالوه وهتفت بصوتٍ عالٍ:

- يا جماعة اسمعوني.

مجرد أن لفظت الكلمة وكلهم في صوت واحد راحوا يغنون ويغردون بأغنيةِ وردة:

- اسمعوني واسمعوني.. بكرة هتدوروا مش هتلاقوني.

رأسي بها ألف موال، بمعنى أصح لا أستطيع أن أفكر جيدًا، بين أخذ وعطاء، صدرت القرارات وبالإجماع، أن يخرج أولًا من المبلغ لزوم ما يضبط الدماغ، معروف أن الحشيش هو أهم وآخر مبتغانا، استقطع مبلغًا لزوم ما يكفي لأسبوعين متتاليين، سأل جربوع الجميع سؤالًا مباغتًا:

- هل يعرف أحدكم كلمة كباب؟

فرد أولهم:

- نفسي قبل ما أموت أدوقه.

وأسرع جربوع مستجيبًا له:

- ورحمة أمي لأدوقه لك الليلة دي، قبل ما تطلع الشمس هخليك تحلف بإنك هبرت كام حتة كباب وكفتة، أنا متأكد إن أهلك وأقرب الناس ليك هيتهموك بالكدب، بس أنا حلفت والفلوس في جيبي.

رحنا نحسب حساباتنا، أكد جربوع أن الباشا أكد له أن تلك النقود مقابل الإعلانات عن الترشح للإنتخابات، وأنه تحت أمرنا في أي خِدْماتٍ أخرى.

يردد داخلي: "صح المال السايب يعلم السرقة"، أسأل لو كانت سرقة فمن نسرق؟ ومن أين أتى بها هذا الأمين؟ أعتقد بأنه دفع تلك الأموال والمسجل في دفاتره بالطبع أضعاف هذا المبلغ، فأنا سمعت من واحدٍ قريبٍ منه أنه اشترى مساحةً من الأرض في الفترة السابقة بمبلغٍ وقدره.

رغم أننا تناولنا العشاء، قررنا بأن نطهر معدتنا بأكلةٍ معتبرة ووافق الجميع، ليلة أكلنا وشربنا وعددنا يصل لعشرة أفراد، في بذخ شديد وسعادة غامرة وبهجة قلما تمر بنا، نعم نصنع البهجة أحيانًا بالتهكم والسخرية من فقرنا، أما اليوم فإن السعادة تغمرنا وفيض من الأموال نمتلكه، فأكلنا وشربنا وغلبنا النوم مع ساعات الصباح الأولى، الغريب أن كل ما صرفناه لم يتجاوز الخمسين جنيهًا.

لن أكذب عليكم فقد تصورنا بأفكارنا الطفولية أننا نبتز معالي الأمين، لم تكن شعبيتنا بالقليلة، وشعرنا بأننا قوة لا بأس بها، في اجتماعنا مع السيد الأمين، وضحت له الأفكار التي نسير عليها، شعر براحةٍ غريبةٍ ظهرت معالمها على وجهه في حينها، وفي خباثة وجدته يدفع في يدي مظروفًا في السر وضغط على يدي، فهمت من حركته أن لا أفصح عما به لأحد، فعلًا لم أفتحه إلا وأنا بمفردي، لم أخبر أحدًا بما احتواه، كان مبلغًا لا بأس به، فلم أسأل أهلي أي نقود لفترة طويلة.

عقدنا العزم على خوض الانتخابات كجبهة مستقلة وبعيدة عن الجماعة، انهالت علينا الوعود شبه السرية، أحسسنا من الكلمات المنتقاة التي يصموننا بها بأن المستقبل شبه ملك أيدينا، في نفس التوقيت، الجماعة تستثمر كل الوقت في الدعاية الضخمة

التي لا نصدق من أين أتوا بأموالها، قبل الانتخابات أقاموا معرِضًا في الفناء الخلفي للكلية وكانت معروضاتهم بأسعارٍ زهيدة فعلًا، كلها في متناول الطلاب والطالبات، أعلنوا عن نفسهم بأكثر من وسيلةٍ ناجحةٍ فعلًا، كلنا متأكدين أن الحزب مخادع وكل ما يهمه قضاء مصلحته وفي النهاية لن يعرفونا، يكذبون علينا وبدورنا نحاول الاستفادة بقدر الإمكان من ورائهم، كلهم يسعون لمصالهم الخاصة ومآربهم، لقد آتوا بالوزير خصيصًا ليحاول أن يحول بينهم والوصول للسيطرة على اتحادات طلاب الجمهورية عمومًا؛ فالجماعة الإسلامية نجحوا العام السابق بل كانت لهم الأولوية، كادوا يفوزون بتمثيل اتحاد طلاب الجمهورية عمومًا، استطاع الوزير بقدراته وآفاقه أن يحول بينهم والحصول على قيادة اتحاد الطلاب، فرغم أنهم فازوا فلم يعترف بفوزهم، بل شكل اتحاد طلابٍ آخر يمثل الجمهورية بعيدًا عن أعضاء الجماعة؛ فكان هناك اتحادين لطلاب الجامعة على مستوى الجمهورية، أحدهما خاضع للسلطة والوزير والآخر تابع للجماعة، اليوم الجميع يتخوفون فالجماعة استطاعت تنظيم صفوفها أكثر من العام السابق، احتمال كبير للفوز بكل المناصب على مستوى الجمهورية.

***

لم تهرب من ذاكرتي كلمات أستاذي المتهم غالبًا من قبل السلطات مهما تغيرت واختلفت، كنت أظن أنه مجرد عاشق للمعارضة لذاتها.

"أنتم جيل فارغ، مجرد أوانٍ فارغة، والإناء الفارغ يمكن ملؤه بأي شيء، ماء وغيره، سائل أو لزج ولو، حتى الزفت والقطران".

مجموعتنا فعلًا فارغة الرأس من الفكر، شباب بلا ثقافة أو فكر، ننتظر أفلام العشق الملتهب والعري من خلال شاشات السينما، لا نقرأ بل لا نجيد القراءة أغلبنا على هذا الحال، أما الانتخابات فهي فرصة لقضاء الوقت وفي حياء أقول محاولة الاسترزاق من ورائها، ولا مانع أن تكون فرصة للتعارف على الجديد والحديث من الفتيات، بصدق من يقفون على الجانب الآخر منا أكثر رقيًّا منًّا، فيكفي أنهم يؤدون الصلوات في وقتها، وشعروا أن شوكتهم أشتدت، فلم يبالوا حتى بأعضاء هيئة التدريس، بل إن عددًا كبيرًا من الأساتذة تقربوا منهم وأيدوهم، لكن غالبًا في الخفاء، وكانت أعظم الأشياء في تلك الفترة أنه ممنوع دخول الأمن وأجهزته داخل الجامعات، فصالوا وجالوا وأقروا حتى كيفية الجلوس في مدرجات العلم، فكانت الأماكن محددة ومخصصة للطلاب وأخرى للطالبات، أقروها وأعلنوها ونفذوها وتحت مسميات الدين والشرع، أما الأنشطة الثقافية فقد توقفت أغلبها، الحفلات المعتادة والغناء منع تمامًا، ويوم أعلن عن عرض لليلة مسرحية، توخينا الحذر، الصمت يومها غالبٌ ولم يبد أي من أمرائهم الصغار أو الكبار تعليقًا، أخذ الحماس بعض المنظمين للحفل والعرض، فتحدثوا عبر مكبرات الصوت المتنقلة عن العرض وموعده، واقتربت ساعة العرض وفتحت أبواب المسرح الكبير "قاعة طه حسين"، جموع ليست بالغفيرة جاءت، لم تكذب أحاسيسنا، بمجرد أن بدأ العرض ولم تمض ربع ساعة، صيحات وتهليل وتكبير، جنازير وعصي وهجوم على المتفرجين وكذلك الممثلين، هروب وصرخات وكل يلتمس طريقًا للخروج، على الأبواب فصيل محدد، المهاجمون داخل

القاعة فصيل آخر، من يخرج من أبواب المسرح هناك مجموعة أو مجموعتين تتولى الأبواب الخارجية، ممنوع الدخول إطلاقًا، والخارج لا مانع من تحيته السريعة بعدد من الضربات فوق جسده، يسرعون ويهربون، أعلنوا الانتصار وهللوا وكبروا، الأخبار التي وصلت لسمع كبار المسئولين في الجامعة أو في المحافظة عما حدث، تصنعوا عدم المعرفة بما يحدث، عندما خاطبتهم الرئاسة والمخابرات، ادعوا أنها مجرد زوبعة في فنجانٍ والموضوع لم يتعد خلافات بين الطلاب وبعضهم أثناء عرض مسرحي، كثيرون مصابون، منهم من تحمل وفر إلى منزله وأهله، منهم من لم يتحمل وتم حجزه في المستشفيات، الأعداد في المستشفيات كثيرة ولكن لا يشيرون إليها.

اعتدنا من الأخوة اليساريين والشيوعيين أن يركبوا موجة الأحداث، أسرعوا وأرسلوا إلى الجهات المعنية والأمنية بأنهم تعرضوا للضرب وأنهم في المستشفيات وبلا رعاية، استطاع ممثلوهم إرسال برقيات بطرق متعددة.

نشاط غير عادي يدب في أرجاء مبنى المحافظة وكذلك مقر الحزب الوطني الديمقراطي، رسائل شديدة اللهجة من خلال الهاتف من الجهات العليا توبخهم لتكاسلهم وتركهم الأمور تصل لهذا المستوى، يحاولون أن يحسنوا صورتهم وبأي صورة وتحت أي مسمى، شدوا سواعدهم، أرسلو عيونهم تستطلع فتأكدوا أن الوضع فعلا سيئ جدًّا، عليهم أن يتدبروا أمورهم وإلا سيسحب البساط من تحت أقدامهم، لقد امتهن أغلبهم مهنة السياسة والكسب المشروع بطرق ملتوية، إن ابتعدوا عن الساحة لن يتركوهم أيضًا.

في القاعة الكبيرة، احتشدنا بالأمر المباشر، أتينا من بيوتنا ليس بمحض إرادتنا، تحدثوا جميعًا وأسرفوا في الحديث، وكان من أفضل المتكلمين منا نحن الطلاب، (سيف الراعي) كلنا نعرفه والجهات الأمنية تعرفه جيدًا، شيوعي مخضرم، تكلم في ثورية وصراحة غريبة ملقيًا اللوم على القيادات التي تركت الحبل على الغارب، بل إنهم كانوا يساعدون أعضاء الجماعة أيضًا، يتحدث عن الأبطال من الطلاب الذين أقاموا حفلًا مسرحيًّا ولم يحتاطوا ولم يتخوفوا، إنهم مؤمنين بأهمية الثقافة والثورة، وأين هم الآن؟ راح يسرد أسماء عدد من الطلاب في المستشفيات ومدى إصابتهم، هؤلاء الأبطال يدافعون عن الحرية، أنظر للراعي اليساري أو الشيوعي بمعنى أصح وأستعجب مما يقوله؛ ففي يوم من الأيام تدفعني شجاعة وقتية أن أشارك هؤلاء الثوار الشيوعين واليساريين أفكارهم، أن أعرفهم عن قرب فكنت ألتمس طريقًا للثورة فذهبت إليهم لأعرف أفكارهم، وجدتهم أكثر فجرًا وغرورًا، كانت لهم خلاياهم السرية وأماكن اجتماعاتهم، ثورةٌ دائمةٌ في أحاديثهم، لم أحفل كثيرًا وتأكدت بأنهم حقيقةً بلا مبدأ، مثل مجموعتنا تمامًا، يشرعون أفكارًا ومفاهيم جديدة، أنظر لما يدور حولي وأرى تقلب سحنات أصحاب السلطة والنفوذ، أحاديثهم دفعة قوية للطلاب أن يجابهوا الإخوة، دارت حوارات، تركوا الشباب يتحدث تحت مسمى الحرية والديمقراطية، حفزوهم، بل دفعوهم أن يجابهوا تلك التيارات الإرهابية التي تنوي السيطرة على الجامعة بل على البلد كلها في القريب العاجل، الغريب أنني أصبحت متحمسًا ضد الجماعة، تكلمت واستمعوا لي بل أشادوا بأفكاري، كانت مباركتهم جميعًا لنا وألا

نستسلم لمن يتقنعون برداء الدين، إنهم يتكسبون من وراء أفعالهم، ضربوا مثلًا بهذا السوق الخيري المقام في كليتنا، إنهم يكسبون كثيرًا، فأغلب تلك المعروضات عبارة عن بالات قديمة واردة الخارج عن طريق بورسعيد، تحدثنا ودفعونا بذكاء غير عادي أن نتحرك وفق مخطط، فعزمنا أمرنا، في مدرج ناصر في الدور الثاني وكما اتفق مسبقًا، أعلنَّا عن اعتصامٍ وإضرابٍ بسبب ما حدث بالأمس، كانت أياديهم سخية على الغالبية ولكن ليس الجميع فقليل مقتنعون بتلك العملية، أسرعنا وتجمعنا واخترنا مجموعة تندد بتلك الأفعال وتتواصل مع الجهات الأمنية وكذلك مع السادة عمداء الكليات المختلفة، لا أنسى صديقنا المسيحي اليساري المتطرف، عندما همس في أذني قائلًا:

- الأعداد ما زالت قليلة.

- وماذا تقترح؟

- لا بد من دعوة الجميع، فالليلة مؤكد ستحاول الحكومة أن تأتي بمسئوليها لتبحث مطالبنا، وقد أرسلنا لكل الجهات، علينا أن نُفعل موقفنا أكثر.

أنظر إلى الأعداد فأجدها لا تتعدى مائتي طالب، رغم أننا وضعنا في حساباتنا أن العدد لن يقل عن ألف طالب وأن المدرج لن يستوعب الأعداد القادمة، الغالبية لها موقف مناهض لأفكار الجماعة ولكن يقتلهم الخوف، وكما أعتاد أهاليهم يرددون: "الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح".

وعندما تحاول أو تستحث أحدهم للمشاركة يرد ببرودٍ شديد:

- يا عم كبر مخك.

لقد أصاب الناس لا مبالاة غريبة، هل استطالة الظالم أصاب الناس بالخنوع والخوف، ربما وربما عدم مصداقية من مثلوهم في أحيان كثيرة، أقول إن المطلوب حضور ضعف تلك الأعداد، يهز (أبو نجيب) المسيحي رأسه ويقول:

- فعلًا رأيك صائب.

وخطرت برأسي فكرة غريبة، فطرحتها عليه بلا تفكير:

- مش كلنا في الهم سوا؟

- بمعنى؟

- أرسل وكلم حد من رعاة الكنيسة.

- عارف موقف أغلبهم مني.

- اتصرف، فمجرد أن يدعوهم أحد القسس سيسارعون لتلبية مطلبه، كلنا متضررين وأكثر المتضررين النصارى، فالإخوة يأخذون موقفًا، ونحن ندافع عن حرية العقيدة والمفروض أن نحاول أن...

قاطعني وبسرعة أبدى موافقته قائلًا:

- غصبًا عنهم لازم يشاركوا.

أخذته الحمية وتكلم كثيرًا، بل شرح ماذا سيحدث لهم غدًا إن لم يأخذوا موقفًا ويدافعوا عن هويتهم، وتركني وقرر أن يذهب بنفسه إلى الكنيسة؛ فهو الوحيد من الإخوة المسيحيين المشارك في هذا الاضراب رغم أن هناك أعدادًا غفيرة في الكلية والجامعة.

ساعة أو يزيد قليلًا ووجدته عائدًا وعلامات عدم الرضا فوق سحنته ظاهرة جلية، حاول أن يبتعد عني ولكنني أسرعت إليه وانتحينا ركنًا جانبيًا.

- شايف إنك راجع وقفاك بيقمروا عليه عيش.

- سيبني في حالي.
- هو مش حالنا واحد؟
- الراجل غسلني وخلى اللي ما يشتري يتفرج عليا.
لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك ورددت:
- غسلك والله ما قصر يا صديقي.
كانت أفكار راعي الكنيسة ذات رؤية أعمق من رؤيتنا؛ فالرجل أكد أن ظهور النصارى بصورةٍ مكثفة سيتم تأويله بصورةٍ أخرى، ويمكن أن يدعوا أن هذه الأحداث هي بث فتنة يشعلها النصارى، وتلك ستكون بمنزلة النفخ في النيران المتقدة أسفل الرماد الظاهر، عدَّد الرجل أسبابًا كثيرة تدعوه لرفض فكرة مشاركة الإخوة المسيحيين، وجهة نظر تحترم، وأعلنها صراحة أن الكنيسة وممثليها يرفضون خوض غمار معركة خاسرة. كانت الأحاديث في تلك الفترة تردد في غير سياقها بل تأول بصورة مغايرة، فقد صرخ أحد متصنعي الثورة:
- بالطبع سيرفضون المشاركة، بل سيدعون أن تزداد لهيبها، سيبوا النار والعة والنار هتاكل بعضها.
تفسيرات كلٌ يطلقها حسب هواه ورؤيته، نحاول أن نطمس على ما يثار، فنترك المجال لأفضلنا حديثًا وثورية يتكلم، رفعنا شعاراتٍ كتبناها في المدرج، هتفنا ضد الأفكار الهدامة، لعنَّا المتاجرين بقضية بلادنا واتهمناهم بأنهم يستمدون قوتهم من قوى خارجية، يبدو أن أصواتنا وصلت عبر مكبرات الصوت، كانت الكلمات التي وصلت لمسامعنا ممن يتولون نقل كل كبيرة وصغير للمسئولين، تشجيع ومطالبة بالاستمرار وبصورة أقوى،

بل أكدوا أن قوات الأمن نفسها صدرت لها الأوامر بالتحرك استجابة لثورة الشباب داخل الجامعة.

في تمام التاسعة مساءً توافد السادة عمداء الكليات المختلفة ليقفوا على الأحداث الجارية، تحركوا بحكم مناصبهم ووفقا للأوامر الصادرة إليهم من الجهات العليا، كلهم يخافون على مناصبهم، عندما دخلوا المدرج كانت العبارات المنددة قوية، ربما استشعر الطلاب أنهم مصدر قوة وعليهم إملاء شروطهم على العمداء، وكعادة إخواننا إياهم أشعلوا المدرج بالهتافات، أعلنوا أنهم لن يفضوا إضرابهم إلا بعد تحقيق كافة مطالبهم، العمداء لا يملكون من الأمر شيئًا، مجرد كلمات رددوها بالموافقة فكان عليهم امتصاص تلك الثورة التي أمامهم، طلبوا من الطلاب منحهم فرصة للمشورة فيما بينهم وسيعودون بعد اتصالات بالرئاسة نفسها، الثورة قائمة ومنددة حتى بعد خروج العمداء وذهابهم لمكتب السيد العميد، عيون الجماعة لا تغفل بل تراقب كل ما يحدث ويتخذون قراراتهم وفق متطلبات المرحلة وما تفرضه، ليسوا أغبياء ولا متهورين، حسبوها بدقة متناهية.

في تمام العاشرة مساءً، جاءت الإشارة بالهجوم على مدرج ناصر، أعضاء الجماعة تسلحوا بمختلف الأسلحة المتاحة من عصي وشوم أو قطع خشبية قوية، رفضوا استخدام أية أسلحة بيضاء، في ثوان معدودة سيطروا على الموقف تمامًا، أغلقوا البابين، بعناصر ذات أجساد مفرطة في الطول والقوة، وانطلقت عناصرهم للداخل مهللة مكبرة داعية بالموت لأعداء الدين، هجموا، ضربوا بكل قوة، أحد المضربين من الزملاء معروف

بميوله الشيوعية وكثيرًا ما حاول أن ينتقد أفعالهم، مجرد أن وقعت عيونهم عليه، لم يضربوه بل سحلوه، صرخاته لم تشفع له، فلم يتركوه، كلنا بلا استثناء أخذنا نصيبًا وافرًا من الضرب، الأبواب مغلقة، الوسيلة الوحيدة للهروب عبر النوافذ، نعم المدرج في الدور الثاني، لا خيار أمام الجميع؛ فالكسر في تلك الحالة أهون من تلقي تلك الضربات المجنونة، لم يتوان الجميع، فقفزوا من شدة الضربات، لكن لم ينته الوضع بذلك، كانوا قد حاصروا المكان من الأسفل بقواتهم الضاربة، فمن قفز ومن بالجري ناله ما ناله من العصي والهروات الجاهزة، هربنا بعد أن قفزنا لكن علينا أن نجد مخابئ نداري فيها أنفسنا فيبدو أنهم منتشرون أيضًا خارج أبواب الكلية، تسللت وأسرعت في حركتي حتى أصبحت داخل مطعم الكلية، فسكنت وتكورت في جلستي، وحاولت أن لا تخرج أنفاسي، عيناي تتطلعان حولي في خوف ورعب، الظلمة حالكة فحمدت الله، التزمت بمكمني حتى تحين ساعة الفرار، عليَّ أن أحسبها بتريثٍ ودقة فأنا في وضع لا أحسد عليه، أنا أعرف كل مداخل ومخارج الكلية؛ بل إن مفاتيح حجرة الاتحاد ما زالت بحوزتي، لم أتجه صوبها نهائيًّا وفي اليوم السابق كانت قد أصبحت مجرد بقايا، فقد أشعلوا النيران في أثاثها.

الخوف يتملكني ولا أتحرك، أصغي السمع بكل قوة حتى لا أصبح عرضة للقبض وقد ينكلون بي، من خلال أشعة النور النافذة في حياء والضعيفة جدًّا ألتمس اكتشاف أي شيء حولي، آهة مكتومة جعلت فرائصي ترتعد، انكمشت أكثر واستطلعت عيناي بقوة واخترقت حجب الظلام والعتمة البالغة، الشبح

المتأوه يزحف ناحيتي، يبدو أنه من أصحابي ممن نالهم الضرب المبرح، تأكدت بأنه من صحبتنا.

اقترب أكثر وتأكدت من شخصيته، إنه (أبو نجيب) الذي قال بكلمات متعثرة صعبة الفهم:

- أنا مشيت وراك خطوة بخطوة، وانت وكأنك فص ملح وداب.

هم أن يضحك فأسرعت مغلقًا فاهه.

- انت مجنون يخرب بيت سنينك دي ليلة مش هيطلعلها صبح.

- آه يا صاحبي العيال كانوا نفسهم يقعوا في وقيعة وما صدقوا، سوونا.. آه، أنا حاسس إن مفيش سنتي في جتتي سليم، إيه اللي جابرني؟ عارف لو ربنا نجاني هروح الكنيسة وأول حاجه هأعملها هميل على رجل أبونا وأحبها، الراجل كان قاري كل اللي هيحصل، قال ليا يا ابني اطلع من هنا على بيتكم على طول.

- ماسمعتش كلامه.

- غلطه وندمان عليها.

- هتغني ولا هتضحك؟

- شر البلية ما يضحك.

أحاول أن أجعله يلتزم الصمت، حديثه يثيرني فأحبس ضحكاتي غصبًا عني، يواصل:

- عارف يا صاحبي لو القسيس سمع كلامنا وجم العيال النصارى معانا؟ كانت ليلة مش هتبقى سودة ولا غبرا بس، كانت ليلة هتبقى أسود من زند العبد اللي هو البتنجان الاسود اللي بيسموه العروس، طب ليه؟ عيال النصارى عيال ناعمة وزي البسكوتة، تخيل لو كانوا موجودين في الهجوم ده كان هيحصل إيه؟

- يا ابني اتلم كفاية المصيبة اللي إحنا فيها.
- العيال كان عضمهم هيتفكك وهنجمعه في قفة و...
ولم يستطع إكمال حديثه فراح يئن ولكن بصوتٍ مكتوم، أنا أحبس ضحكاتي، لكنه لا يصمت ويقول:
- أنا حاسس إنك عميل مزدوج، أنا شفت بعيني الواد الأعرج أبو دقن، عامل إنه بيضربك وبيزيحك بإيديه الاتنين علشان تنط من الشباك القريب من الأرض، بأمانة خدت كام عصاية فوق جتتك؟ أنا حاسس إنهم مامدوش أيدهم عليك، اوعى تكون...
- يا ابني أحب على رأسك اسكت مش وقت الكلام ده، عايزين نعرف اللي جاري إيه.
- يا بوي ده الواحد كل ضرب ولا حمار في مطلع، جتتي بتنقح عليا.
- في عرضك اتهد وحط لسانك جوه بقك، عايزين نشوف حتة ننفد منها بجلدنا.
أصوات عبر مكبرات الصوت المتعددة تطالب الجميع أنه لا داعي للعنف، وتطالب الجميع بالخروج فورًا، تحول الطلب العادي إلى أوامر، سنضطر إلى التعامل معكم بعنف، يبدو أن قوات الأمن قد حاصرت المكان بالكامل.
تخوف أعضاء الجماعة، ربما يصيب الإخوة المحاصِرين ضرباتٍ من الأمن، انتظروا رؤية الكفيف الذي أسر إليهم بأفكاره.
أعداد المحاصرين ليست قليلة ويجب حمايتهم من اعتداءات قوات الأمن، وربما يلقون القبض عليهم، تم بسرعة غريبة تخزين البضائع الخاصة بالمعرض القائم الخاص بالجماعة بعيدًا عن متناول الجميع، لحين نقلها، أضرموا النيران في بعض البقايا

الخشبية المتواجدة والمهملات الملقاة وشيء من المعروضات أيضًا، تعالت الصرخات، تواصلت تهديدات الأمن، تم قطع التيار الكهربائي بالكامل عن الكلية، صدر الأمر الثاني، انطلقوا لحجرة السيد العميد تحت أضواء المشاعل وبعض المصابيح الكهربية القليلة، أمروا مجموع العمداء بالخروج في التو واللحظة، يحاول أي من العمداء أن يستفهم عما يحدث، لكن يغلب عليهم الصمت، يطلقون أوامرهم ثانية وعلى الجميع التأهب للخروج وبسرعة، رغم أن أحد العمداء مصاب في قدمه ويمشي مستندا إلى عكاز، المشهد لا ينبئ بخير، عليهم الانصياع للأوامر الصادرة؛ فهؤلاء الشباب ليسوا إلا جنودًا مأمورين بقرارات علوية، تركوا النيران تلتهم المعروضات المتبقية ولم يفكروا في إطفائها.

في المدينة الجامعية التي يغلب على قاطنيها من الشباب الانتماء للجماعة، انطلقت الأبواق تدعو للجهاد!

"الشيوعيون والكفرة حرقوا المعرض بالكلية، قوات الأمن تهاجم الزملاء وتحاصرهم داخل المبنى، عليكم تلبية داعي الجهاد".

تكبير وتهليل، هبط الجميع للطابق الأرضي ومنه خارج المدينة، يرددون الشعارات ويحفزون الشباب أن ينطلقوا لنجدة زملائهم، حتى غير المنتمي للجماعة من الطلاب اشتعل حماسه وتدفقت الدماء في شرايينه، فحملوا المشاعل وتسلحوا بالهراوات والعصي المخبأة لساعة الحاجة، خرجت الجموع من المدينة بالآلاف، التيار الكهربائي مقطوع أيضًا عن المدينة وما حولها، المشاعل تعكس الحالة التي أصبحت عليها المنطقة كلها، ربما هبط بعض الناس من منازلهم تعاطفًا وحبًّا وخوفًا على الدين، ربما ليستطلعوا الأمر ويحيطوا علما بما يدور حولهم.

انطلق الشباب في مشهد يموج بالثورة والتنديد بالأمن والكفرة والشيوعيين، الشارع ملكهم، انتحى البشر بعيدًا، يبدو أن كثيرًا من الناس لهم ثأر مع الأمن؛ فموقف الشباب أثار حميتهم، فإن لم يشاركوا دعوا لهم بالنجاح، هناك أعداد ولكنها قليلة من الناس شاركتهم، لم تنم المدينة كلها، ربما لم تفتح النوافذ ولكنهم يتتبعون خطى الثوار من خلف الأبواب والنوافذ.

حاصر الشباب بمشاعلهم وأصواتهم المهددة المتوعدة جنود الأمن، والجنود بدورهم حاصروا الكلية بما فيها من طلاب من الجماعة وغيرهم، أحاط الطلاب بالعمداء وطالبوهم بأن يتتبعوا خطاهم، وافقوا على الفور.

بدأ المشهد في دوائر، بؤرته العمداء وبعض الطلاب المناهضين للجماعة ممن قبض عليهم بعد أن أشبعوهم ضربًا، حولهم الشباب وقد تشابكت أيديهم حول العمداء والخارجين عن قانون الجماعة في دائرة، وصدرت الأوامر لكل أعضاء الجماعة ممن هاجموا الطلاب في مدرج ناصر أن يتحركوا صوب المدينة الجامعية، وكذلك القائمين على المعرض القائم وليتركوا النيران تأكل المعرض، في سريَّة حملوا أغلب البضائع المعروضة حتى يخلوا ساحة المعركة والتراجع صوب معقلهم في المدينة الجامعية، الأمن يلقي بتعليماته، يطالبهم بأن يخرجوا سالمين وإلا سيتعامل معهم بعنف، انقلب المشهد فأصبح جنود الأمن محاصرين بدورهم بجموع الطلاب الثائرين، ومشاعلهم التي تنير الليل، وعبر مكبرات الصوت يهددون الأمن، يطالبونهم أن يفكوا الحصار، يعلنون أنهم يأسرون العديد من الطلاب وكذلك عمداء الكليات، وأن أي هجوم للأمن سيعرض حياة المأسورين للخطر،

الضباط الأصغر رتبة لا يعرفون ماذا يفعلون، يسألون كبارهم فيطالبونهم بالتريث والصبر لحين وصول آخر التعليمات من القيادة، طالبوا أن تفتح قوات الأمن الطريق لعودتهم وإلا...

فتحوا الطريق، سار الموكب، بدايته العمداء والأسرى، يحيط بهم أعضاء الجماعة، حولهم مباشرة قوات الأمن وأغلبهم يشهر أسلحته، ومن حولهم طلاب المدينة الجامعية وغيرهم بمشاعلهم وأصواتهم الهادرة وتكبيراتهم وتهليلهم، تحرك الموكب من الكلية وحتى المدينة مسافة تتجاوز الكيلومتر الواحد، لا مفر، الجميع يتخوف.

لم تستطع سيارات الإطفاء أن تدخل لتسيطر على النيران المشتعلة بالمعرض، عندما تحرك الموكب، تحركت سيارات الإطفاء وأغرقت المكان بالكامل بالمياه.

وصل الموكب إلى المدينة الجامعية، تواصلت الاحتفالات بالنصر، بل أملوا شروطهم قبل أن يفكوا الأسرى، كانت أهمها التعويض عما لحق بهم من خسائر بسبب حريق المعرض، استجابوا لمطالبهم بالكامل وإنهم سيدفعون لهم.

أبو نجيب ينظر لي متسائلًا:

- ده كلام؟

- إنها ثقافة القوة وإملاء الشروط.

- دولة داخل الدولة.

- لتكن، علينا بالهرب.

خرجنا من الكلية أثناء عمل قوات الإطفاء، نفضنا ملابسنا وأيدينا، علينا أن نلتزم بيوتنا، علينا أن نهاجر أو نترك المكان، حمدًا لله إنه عامنا الأخير، الغريب أن الإخوة الشيوعيين، جمعوا أنفسهم،

من ناله الضرب ومن لم يشارك أصلًا، دخلوا المستشفى العام وأعلنوا الإضراب عن الطعام والشراب، توافد عليهم المسئولون، استقدموا لهم أفضل الأطعمة من مشويات، لكنهم أعلنوا العصيان، يطالبون بحقوقهم في دولة القانون.

مضربون عن الطعام، يأكلون بمجرد أن يخرج المسئولون.

دكتور.. مجند أمن دولة

- ثقافة؟ اللي يسمعك يقول جاب الديب من ديله، يا شيخ اتوكس.

كنت في حالةٍ لا تسر عدوًا ولا حبيبًا، عزفت عن استكمال الحديث معه، أما هو فصديقي الغالي، بل هو صورتي وأنا أقف أمام المرآة، ليس بيننا فواصل، ربما أشعر أحيانًا إنه توأمي بل لا نفترق أبدًا، نتواجد في مكان واحد دومًا، ولكن تواجدنا مرهون بوجود المرآة وساعة الوقوف أمامها فحسب، يعنفني ويناقشني بل أحيانا يتطاول عليَّ ويبصق على وجهي وهو وجهه، مضطر إلى أن أمسحها ولكن لا أستطيع الثورة عليه، إنه الضمير الحي بالنسبة لي، يقف لي بالمرصاد، فإن هممت بفعلٍ خارج، يمسح بكرامتي الأرض، عندما أبتعد عن المرآة أحاول نسيانه وأن أفعل ما يروق لي.

بعد كل ما كتبت، بعد أن تناول أكثر من باحث كتبي بالنقد والتحليل، صاحبنا الذي يمنح صكوك غفران الثقافة قال لي:

- إنك لم تأت بجديد؛ فموضوعاتك شبه معادة ومكررة.

أثارني وأشعل نيران الغيرة في صدري، هل عليَّ أن أتحاشاه، هو معروف بتغلغله في الوسط الثقافي، صنع لنفسه مكانةً وموقعًا، لا يجابه إلا بالكلام، أما زبانيته وتلاميذه فكلهم يدينون له بالولاء، فما يقوله مقدس وعليهم السير على نهجه، كثيرًا لا يهاجم مباشرة ولكن يضع نصب عينيه من يريد مهاجمته، بإشارة سريعة يقلل من شأنه بكلمةٍ أو بإشارة، على التلاميذ أن يتولوا

أمره، ينهشونه بل يسومونه سوء العذاب، يلقون فوق رأسه كلماتٍ ساخرة مستهزئة، ضعيف الشخصية وغير المتمكن يبادر بالهروب، حتى الواثق بنفسه يجد أعداد المهاجمين تحت مسمى النقد الأدبي يتكتلون وغالبًا يستسلم، يشعر بضيق وقرف بالغ يسيطر عليه، لا مفر عليه المجابهة، فيذهب إلى المرآة.

يضحك ويقول له:

- يا سيدي ولا يهمك، خلي روحك رياضية، صاحبك ده ذكي جدًّا، منذ أن اعتلى سلم الثقافة لم يتنازل بعد حصوله على درجة الدكتوراة، بل إنه تطاول على أساتذته وحاول أن يقلل منهم ومشاريعهم، استطاع من خلال نادي الأدب الذي رأسه لسنوات متعددة أن يصنع جنودًا من حوله يأتمرون بأمره، جنوده لا يعرفون عن الثقافة سوى أنها أحد الوسائل لكسب العيش والظهور الثقافي المدعي.

- كيف؟

- هذا ما أكدته المواقف يا صديقي، على سبيل المثال، هو "مابيبلعكش من زوره"، وجودك في أمسيات نادي الأدب لا يحبذها، فماذا فعل معك في أمسية الأمس؟

أضحك وأنا أقف أمامه وأرد عليه:

- حقًّا كان يومًا أغبر، يومها نفخت ريشي ولا الديك الرومي، لقد وعدني الدكتور العالم المعروف بأنه الليلة سيناقش روايتي ويستعرضها أمام الجميع، أشاد الرجل بارك الله فيه بالرواية والفكرة، لكنه أشار إلى بعض الأخطاء وخاصة الإملائية، حاولت أن ألتمس لنفسي الأعذار، ضحك ورفض تلك الأعذار التي أطلقتها، وساعة عقدت الجلسة، انتظرت ما يفصح عنه، وأدار الجلسة

بصفته المعتادة كرئيسٍ لنادي الأدب، وما لبث بعد مقدمةٍ صغيرة أن ترك المجال لأستاذه الكبير، فتحدث الرجل وفاض ورفع من شأني وشأن العمل.

بإشارة معتادة، وابتسامة تقطر سخرية، وطالب بأن نعطي الفرصة لمن قرأوا الرواية، تباروا في التقليل من الفكرة والعمل، أشار الذيل الكبير بأن الرواية لا تخلو صفحة من صفحاتها من عشرات الأخطاء النحوية والإملائية، لم يرد العالم الكبير، لكن ترك الفرصة لمن يتحدث وينتقد، أما الذيل الثاني فقد تحدث بطلاقةٍ غريبة ناقدًا كل ما جاء في الرواية؛ بل استطاع أن يشير إلى أحداثٍ غريبةٍ لا توجد أساسًا في الرواية، عندما اعترضه العالِم:

- هل قرأت الرواية؟

- طبعًا، وهي لا ترتقي لأن نسميها رواية، مجرد خواطر لساعة فراغ نسبي تقتله هواجس الإلمام بالثقافة، لكن صاحبنا غرق ولم يدرك بر بحر الثقافة، فغرق وأغرقنا معه.

الذيل الثاني يطلق كلماتٍ غريبة يحاول أن ينسجها، فكلهم يأكلون من وراء سيدهم، عليهم أن يتباروا في مؤازرته عن طريق مهاجمة من تصور نفسه يفهم في الثقافة، كان ذكيًّا فأطلقهم وهم جوعى فنبحوا، فهرب الآخرون، فوق مائدته المنصوبة غالبًا يتناولون ما لذ وطاب، حريص على أن لا يكون إنفاقه من جيبه، يكفي جيب الثقافة ونادي الأدب؛ فقد منح كل منهم الحق في الاستحواذ على مبالغ نقدية تحت مسمى "محاور مركزي"، فقد يشاركونه المنصة أحيانًا، ناهيك عن السفريات وحضور المؤتمرات وما يصرف لهم أيضًا من وراء ذلك، عليهم أن يمسكوا بأيديهم وأسنانهم وأن ينفذوا ما يقوله بالحرف الواحد،

غالبًا هرب أغلب المثقفين وأستمر في الساحة عدد لا يتجاوز عدد أصابع اليد، كان عليه الخروج من دائرة المكان الواحد، فرسم خطته فثمة علاقات قائمة بينه وبين شتى فروع نادي الأدب، يستضيفهم ويصرف لهم المكافأت من خلال نادي الأدب، عليه أن يكون أكثر إنتشارا وميزانية نادي الأدب لا تكفل القيام بكل الواجبات، بذكائه المتقد يقنع السيد المحافظ بإحياء المؤتمر الخاص بأدباء مصر هنا، بالطبع هو يفصح بمواربة عن التكريم المقترح لمعالي المحافظ وفي وجود السيد وزير أو وزيرة الثقافة، قد لا يبدي المحافظ سعادته المخفية لكنه يوافق على إقامة المؤتمر، وكذا صرف المعونة وما يلزم المؤتمر بضيوفه، يجيد حسابات كل شيء أما الذيول اللاهثة خلفه فيكفيهم ما سينالونه وما سيتناولونه من أطعمة، ويضع نصب عينيه أن يكون في المأدبة نصيب للذيول التي تتحرك خلفه مباشرة، اتفاقات ومبادرات ومبالغ مرهونة غير حقيقة لصناعة الدروع الخاصة بالتكريم والمبيت وتناول الوجبات، حريص أن يستقطع من خلال التنظيم ما يسميه إكراميات للعاملين، بدوره يقنع السيد رئيس الهيئة بزيادة المبلغ المرصود للمؤتمر، لا يتوانى الرجل ويوافق، الصورة العامة تشع بالبهجة، قادمون يأكلون ويشربون ويكرمون ويقبضون أيضًا، "المال السايب يعلم السرقة"، يستطيع بسهولة أن يزيد مساحات التعارف مع الإخوة المثقفين ممن ثقلت معدتهم بالطعام والشراب والنزهات المتعددة، وكان عليه أن يوسع دائرة أفعاله، ويرصد جيدًا فيحسب عدد من عرفوه في الفترة السابقة أو من نالهم بكرمه، يتحرك الذيول ويكتبون عبر أجهزة التواصل الاجتماعي، نعم تأتيه على طبق من

ذهب، أجاد التخطيط وكسب المزيد، والآن تزداد مكاسب التابعين والذيول، لقد وصل لما يبتغيه، يوزع على أتباعه ومريديه صكوك الغفران والسفريات والزيارات للبلاد العربية والأجنبية، يكون الكسب بالعملات الأجنبية التي تروق للقلوب والعيون، حريص على أن يرضي الجميع من ذيوله وأتباعه.

يطالبني بألا أحقد عليه وأن أسير على دربه.

- مستحيل.

- لأنك لا تملك الجرأة التي يتمتع بها.

- أرجوك أنا لا أسعى إلى منصب أو...

- إلام تسعى؟

- أنشر كتبي وأجد...

- لن تجد فأغلبهم اشتراهم صاحبنا، هل تعرف الأخت التي أخذت العضوية قريبًا؟ سعت خلفه ونالت.

- هل رأيت كتبها؟ يا سيدي أقسم لك أنها لا تنتمي للثقافة بصلة، لو رأيت كيف طبعوها ونشروها من خلال النشر الإقليمي، قمة الأدب أم قلة الأدب، في المؤتمر السابق كرمت كأفضل المبدعين من المحافظة، منحت المال وكذلك الدرع الثقافي، ألم يحدث ذلك؟ لا أحد يتكلم، الكل أصابهم الخرس.

- يا بني، شوف حالك.

طافت بذهني أحداثا كثيرة، لفترات طويلة، داخلي ألعن الثقافة فهي من أوردتني مورد التهلكة، يطوف بذهني ما حدث أثناء مناقشة روايتي، أبتلع الألم الذي سببه لي الذيل الثاني وهو يصفها قائلًا:

- ولنطلق عليها أي شيء لكن ليست رواية.

ابتسامة رئيس النادي لا تفارق وجهه، ولكنه استطاع أن يوقف نقد الزميل؛ فالزميل كان في حالة مزاجية غريبة حتى إنه لا يستطيع أن يسند طوله، بدا واضحًا أنه في حالة سكر ولكنه غير بين، وتبارى تلاميذ الرئيس.

- تحت أمرك، ماذا تريد؟

- مصلحتك يا ابن آدم.

- يا ريت ترحمني.

- يا سيدي وجودي مرهون بوجودك، نفسي أضحك بعلو صوتي، نفسي أشيل من فوق وشي الهم والغم اللي انت عايش فيه وبيه.

- أنا تحت أمرك آهه.

أضحك بقوة، غصبًا عنه يضحك ولا يلبث كثيرًا ويقضب جبينه.

سألته مجددا عما يريد، يردد كالعادة بأنه يريد سعادتي وبهجتي، أحاول أن يكون نقاشنا هادئًا ربما يصبح مثمرًا.

- علينا بالظهور على الساحة وألا نكتفي بالبكائيات التي لا تفيد، لنبدأ في رسم مخطط للغد، لنحدد، ليسوا كلهم، لنشتريهم.. نصنع رجة وهزة في المجال الثقافي.. لهم حقوق ليأخذوها من تحت الترابيزة أو من فوقها في صورة أكلات ترم البدن.. ما رأيك؟

هممت بتركه، فحديثه الآن لا يثمن ولا يغني من جوع، إنه يطالبني بصنع هزة ورجة، لم يبق غير أن يقول لي أن ألبس بدلة رقص شرقي وأعمل رعشة تحبس أنفاسهم، أسلوب رخيص أنا لا أقبله، لا لا أنا لن أوافقه.

مجرد من مررت من أمام المرآة، اختلست نظرة، تقابلت عيوننا، أصدر أمرًا مباشرًا يطالبني بالتوقف والانتظار، أعرف بأنه

مسحوب من لسانه ولن يسكت، سيأخذ من تحت رجلي ويضع فوق رأسي، حديثه لا يعرف المهادنة، بالطبع لا يجد أمامه سواي ليصب جام غضبه فوق رأسي، مجبرًا توقفت، فرغم كل ما فيه من عيوب إلا أنه صراحةً يعريني أمام نفسي، يفضح عيوبي، لا أتخلى عنه أمام مرآتي.

- ماذا قررت؟

- لم أقرر بعد.

- أمثالك عليهم أن يأخذوا قرارهم بعد الموت.

- أرجوك.

- لا ترجوني، عليك بالمغامرة ولا تستسلم، لقد أشاد كثيرون بكتاباتك ومنحوها درجة الصلاحية، بل هناك من تشجع وصمم أن يجعلها رسالة لأحد طلابه ليمنحه درجة الماجستير، وها هي الدكتورة التي لم تكن تعرفك وليس بينك وبينها أي صلة، دفعت بأحد الباحثات في درجة الدكتوراة لأن تجعل كتبك محط نظرها؛ بل أشارت إليها أن تكون درجة الدكتوراة من خلال كتبك، لماذا؟ هل كلهم كاذبون؟ مستحيل، لن تسير الدنيا على وتيرة واحدة، فكما الخير موجود الشر يلعب دورًا محوريًّا في حياة الشعوب كافة وفي شتى المجالات.

- أخاف.

- ممن؟

- منه، أنت تعرف أن عضته والقبر.

- استرح لقد أفل نجمه.

تنهيدة عميقة وأنا أتذكر صديقه الدكتور الذي كاد يتوقف تعيينه بسبب أنه وصفه بأنه شيوعي بل أحيانًا يخرج عن الدين في كل

أحاديثه، لقد توقف تعيينه لمدة تجاوزت ستة أشهر ولولا أن من الله عليه بمن يساعده وينفي تلك التهمة عنه، وعين في الجامعة ولكنه كان يتحاشاه ويتجنبه وكثيرًا ما يبتعد عن طريقه، لم أنس أنه يوم تطاول عليه في مبني الجامعة، فما كان من صاحبنا إلا أن أنسحب بعيدًا وسريعًا، يوم تحدثت معه، ووصفت ما فعله بأنه هروب، وكان من الواجب أن يدافع عن نفسه أمام الجميع، ضحك وقال:

- ربنا يكفيك شره، دا لدعته أكتر من لدعة التعبان التاغي.

وفي همسٍ بالغٍ قال لي:

- إنهم يسمعونه جيدًا، بل إنهم يعدونه رجلهم داخل الجامعة والمؤسسة الثقافية عمومًا، إن تقرير أمن الدولة الذي يخرج من تحت يديه ما يخرش المياه.

- بتقول إيه؟

- ياعم صوتك هتفضحنا.. الحيطان ليها ودان.

عدت هامسًا طالبًا منه التوضيح:

- مع الإخوان هو إخوانجي، مع الجماعة مؤيد بالباع والدراع، وساعة يظهر على الساحة السلفيين فهو مناصر ومشجع كبير لهم، وتلك وسيلته التي يجمع بها المعلومات ليصيغها بأسلوبه اللي يودي الليمان، أكتر حاجة تجنك أن المشاكل بين الإخوة اليساريين والشيوعيين هو من يتصدى لها ويحلها، كلهم راضون عنه وعن أفعاله، بتلك الطريقة هو يعرف كل كبيرة وصغيرة، تقريره في أمن الدولة قمة المصداقية، فهو لا يصيغها من فراغ ولكن يدعمها بأسانيد وحقائق لا يمكن إنكارها.. كان له نصيب كبير يوم تقسيم الكعكة.

- نعم أفل نجمه، لا لن أكون مثله.

جابهني بقرفٍ بالغ:

- انت عمرك ما تلحق تبقى ذيل من ذيوله وتابعيه، انت فاكر روحك بتفهم؟

لم يتوقف عن سيل الشتائم والسباب، راح يقلب أوراقي القديمة أمامي، لم يتوقف لكنه استطاع أن يقلل من شأني كثيرًا وهو يقول:

- لا تنتظر كثيرًا؛ فالموت أولى بك وأمثالك.

مرشح للقيادة

الأستاذ (مكادي) ابن بلد، يجاري كل الظروف التي يعيشها، يتحدث بتلقائية مفرطة، لا يستحي من كلمة يقولها؛ فكل ما يصدر من فيه له أسبابه ودوافعه الخاصة به، يتقلد منصبه كقائدٍ للجلسة بحكم سنه وثقافته ومكانته، فاليوم يقترب من الستين، وهو مدير للمدرسة الإعدادية، يحيطني كثيرًا برعايته، رغم إنه كثيرًا ما يرصد أي عيب أقع فيه ويجابهني مباشرة، أشعر أحيانًا بأنه يداعبني، في جلسة المساء، رغم أن هناك أكثر من فرد موجود يتوجه ناحيتي متسائلًا:

- تعرف معنى كلمة ثقافة؟

عندما طرح سؤاله تريثت في الإجابة، دائما يتشعب بسؤاله لأكثر من اتجاه، آفاقه رائعة وحضوره قائم دائمًا، لا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يهزمه في حوار ونقاش، يستطيع أن يبرهن على صدق حديثه بطرقٍ متعددة، وحتى لو وصلت للصوت العالي، فهو يملك حنجرة حبالها الصوتية تتناسب مع طوله الفارع، ويبدو أن المادة المصنوعة منها مختلفة عن باقي البشر، حباه الله الكثير من الصفات الجميلة، خفة ظله لا يبارى فيها، كم النكات اللاذعة التي تحتفظ بها ذاكرته غير عادي، بل هو مجدد مبدع ويمكن أن تكون وليدة اللحظة، أنا أحبه لكن لي تحفظات على بعض أقواله وأفعاله، مجرد أن طرح سؤاله توقعت بأنه سيواصل السرد والحديث بنفسه، يسأل السؤال أحيانًا كثيرة ويرد على نفسه، كأنه يستعرض قدراته وآفاقه الفكرية التي

يختزنها، أما صمت الجالسين فإنهم كثيرًا ما يتوقون لسماع رؤيته. قال:

- الثقافة الحقيقية أن تتلون بألوان الطيف وعلى كل لون أن يذهب لمبتغاه.

لم أستطع الصمت.

- ماذا تقول يا أستاذي؟

- الثقافة تلون كالسياسة.

يبدو أنني تسرعت فقلت بنغمةٍ تحمل التهكم والسخرية:

- ثقافة أم بربش بتاعة البطيخ!

وضحكت، أما هو فقد تجمدت ملامحه، شعرت أن في ردي تطاولًا وربما سخرية، هكذا يبدو تفسير ما حل وما اكتسى به وجهه من صرامة، الجالسون جاروني في الضحك ولكن أمام تجهمه، عاد إليهم وقارهم وتجمدت ملامحهم واتجهت أنظارهم إليه تلتمس ما يفيض به من حديث. ليتني ما تحدثت، لقد سحلني بنظراته بداية وفي وجود عددٍ ليس بالقليل من الزملاء والمحبين، أنتظر وأنظر إليه متوقعًا أنه لن يغمض جفنيه ولن يصمت لسانه عن كلماتي السابقة، تربع في مجلسه وسحب سيجارة لنفسه فحسب وأشعلها قائلًا:

- كانوا بيقولوا عليك القطة كلت لسانه، ما انت بتعرف تتكلم أهه وتنكت كمان، يخرب بيت أبوك، أنا يا واد قريت لما القراية قطعت حيلي، حبست روحي قدام رؤية وأفكار من يطلقون عليهم الأدباء والمفكرين، عارف أغلبهم فاشل في حياته، بل إن أغلبهم كانت تجوز عليه الصدقة فهم معوزين غالبًا وفقراء، كلهم -بلاش كلهم- نقول أغلبهم كدابين زفة وبيمشوا في ضل الكبير

حتى لو غيروا فكرهم وكلامهم، أصلها لقمة عيش، مايغركش واحد ظروفه كويسة بسبب دعاء أمه ليل ونهار.

يضرب الأمثلة التي لا تخلو من التهكم والسخرية فتثير زوبعة من الضحكات حولنا، الغريب أن الأكثرية لا تعارضه بل يشيدون كثيرًا برؤيته، حاولت أن أقول:

- يا خال الثقافة سلوك.

حكاياته الساخرة لا تنتهي فقال:

- صح سلوك يا ولد، طول عمري أقول عليك واد ناصح.

واتجه إلى الجميع بالحديث:

- مصداقًا لكلام ابننا الحبيب، افتكرت حاجة وهقولها وأمري لله، ويا ريت نحكم على ما حدث مني تحت مسمى الثقافة، ولا زي ما قال سلوك الثقافة اللي اتقطعت.

خالي ربنا يبشبش الطوبة اللى تحت رأسه ويسامحه، حط إيده على ميراث أمي الله يرحمها وبلعه وشرب وراه كوز مياه سخنة، طبعا الأخ بالنسبة لأمهاتنا حاجة مش هتتعوض، تفتكروا الست العربية زمان، لما سألوها أخوها وولدها وجوزها؟ قالت إيه، الابن مولود، والزوج موجود، والأخ مفقود، يعني من الآخر الأخ أهم حاجة عندها، أمي من الستات دي، لو سألتها بطيبة تقول ليا: "الخال والد يا ابني"، يعني المفروض خالي يحس بيا، أنا طالب وفي الكلية والعملية ماشية بالزق، الدنيا قفلت في وشي، طب أعمل إيه، أمي قالت الخال والد، طيب والله لأجربه يمكن يديني ولو من نصيب أمي اللي لهفه، يا سلام يا شباب استقبلني مية مية.

نظرنا لبعضنا، وسحب واحد من لسانه وقال:

- طردك.

ضحك عاليًا وقال:

- صح الخال والد، قابلني مقابلة عشرة على عشرة، سألني: "اتغديت يا ولا"، كان نفسي أقول له إني على لحم بطني من صبح ربنا ودا السبب اللي خلاني جيت لك، قلت: "الحمد لله"، عاد السؤال ثانية وشتمني، يا ولد أنت في بيت خالك مش حد غريب، انت تطلب اللي عايزه، أشكره ولكنه صمم قائلًا: "بص يا واد انت ابن حلال مصفِّي، عارف مرات خالك عاملة شوية بامية ورا لحمة ضاني تستاهل بقك"، معدتي كركبت وكأنها شمت الريحة، هو ظروفه حلوة، صمم وحلف وأنا بصراحة ما صدقت، أصل زماننا كانت اللحمة بنشوفها عند الجزار ونسلم عليها ونعدل وشنا الناحية التانية، والبيت اللي فيه زفر ساعة الأكل بيقفل الباب بالضبة والمفتاح، المهم بإيديه نزل صينية من فوق فيها أكل يرم العضم، الكمية كبيرة، هو خالي من يومه بكرش ويحب الأكل، هو كل حق أمي من قليل! ما أكدبش عليكم أنا قمت بالواجب وزيادة، كنت هموت من الجوع وفرصة، الأكلة دسمة وترد الروح، لحقني خالي بكوباية الشاي التقيلة وهو يفتكر أمي وحبها للشاي التقيل بعد الأكلة الدسمة، ويمدح في أمي ويقرب يبكي ويضحك لما يوصفها وهي بتاكل لية الخروف المحمرة، بلبعت كوباية الشاي واللقمة كبست على مراوح قلبي، قلت أستعجل وأقوله على الطلب اللي أنا جاي علشانه.

قال بأسى ممثلًا دوره أمام خاله:

- سامحني يا خالي لولا الملامة، بس الظروف صعبة قوي يا خالي.

- انطق يا ولد.

يا دوب أنا قلت لخالي دول كام جنيه لا رحوا ولا جم، بس غصب عني، حسيت إن وشه اتقلب ولو حد ضربه بسكينة مش هيخر نقطة دم، اتململ شوية يمين وشوية شمال، وطلع على فوق، قلت يمكن ربنا يهديه ويفك كربي، بنته الأمورة قليل لما أشوفها، سنها بتاع أربع خمس سنين، سلمت عليا، البت زي العسل، قعدت تحكي ولا الكبار، نزل بس وشه ما يبشرش بخير، كلام كله اعتذار عن الظروف واللي حاصل، يقلب الموضوع ويقول للبت: "اسمك إيه؟ اسمها على اسم أمك الله يرحمها، كانت أغلى حاجة عندي في الدنيا"، المصيبة إنه اتخنق بالبكا، مجرد إنه سمع صوت مراته طلع على فوق جري ولا الرهوان، البت زي العسل وفي رقبتها حتة دهب حلوة، ضحكت معاها وخدتها بالحضن ولهفت حتة الدهب، وتاويتها بسرعة في جيبي، نزل خالي الله يسامحه وبين إيديه صينية بطيخ، مصمم إني آكل وأنا مصمم أمشي بسرعة، أقسم لكم بالله كانت أول مرة أسرق، أنا مش حرامي، أنا خدت جزء من ميراث أمي، فتفوتة صغيرة من اللي أكله ولهفه، كنت في أمس الحاجة لها والله ظروفي يومها تصعب على الكافر، بكل بجاحة تاني يوم سألني عن حتة الدهب، ما كدبش عليكم طلعت فيه، حرام عليك دي مش لقمة هتذلني بيها، مراته كانت قوية وكان بيخاف منها، عرفت بعدها أنه اشترى واحدة زيها بالظبط وإنه ادعى إنها كانت واقعة في الأرض وقفل على الموضوع، بس عينيه بتتهمني، مش مهم، أنا ليا حقوق كتير عنده.

يضحك ويواجه الجميع:

- في ذمتكم أنا حرامي؟ مسلكي ده ثقافة ولا لأ؟ دي ثقافة استراد الحقوق بطرق ملتوية، بمعنى أصح بصورة غير مباشرة، الصور المباشرة إنك تاخد حقك بالقوة والدراع وتدخل حرب، ما كل الدول بتاخد حقوقها بالطريقة دي، لكن أنا ما أقدرش ألوي دراعه ولا أقول له تلت التلاتة كام، أعمل إيه؟

جميع الجلوس يضحكون ويشيدون به وبأفكاره، نظر إليَّ وبصورة شبه متحدية مستفزة، لكن وجهه يفيض بالضحك في نفس الوقت.

- أنا عارف رأيك مغاير لرأي الناس دي كلها.

في تردد أقول:

- الثقافة في أفضل تعريف لها هي السلوك.

- شوف يا بتاع السلوك، أنا عارف إنك اتعديت مني، بس يا حبيبي أنا ربنا شفاني من فترة طويلة وعرفت إزاي أعيش، يا جماعة الثقافة ما تسقيش مياه، كانوا يقولوا لنا وانت مسافر بره، شوف لك حتة أمان وادفن فيها كرامتك قبل ما تسافر، انت رايح تكسب لك قرشين تتعيش بيهم انت وعيالك وتعيش مستور اللي باقيلك من عمرك.

صمت وهو يشعل سيجارته وكأنه ينتظر ردود الفعل المتباينة من الجالسين، قطعوا صمتهم وسألوه عن المكان الذي دفن فيه كرامته، هل عندما عاد وجدها كما هي؟

- اليمنيون من أفضل البشر طيبة وخلقا، أليس منهم أبو عبيدة ابن الجراح الذي أطلق الرسول عليه الصلاة والسلام أمين الأمة، غالبيتهم بنفس الطيبة والسماحة، عندما سافرنا للإعارة في اليمن، فعلًا لم يتغيروا كثيرًا، عشنا في قرية في لواء يسمى لواء

إب، الجو ربيعي طوال العام والخضرة منتشرة في السهول حتى قمم الجبال، وكأنك في سويسرا، نعم أنا لم أسافر لكنني سمعت ممن قدر لهم وحجوا لسويسرا.

عندما يتوفى أحدهم، كان هذا يومًا من أيام سعدنا، علينا المشاركة في الجنازة مع أهل القرية وفي مقدمتهم بالطبع شيخ القبيلة، بعد أن نواري الميت التراب، نجلس صفًا واحدًا أمام القبر، ونبدأ ترتيل وقراءة سورة ياسين رحمة للميت، يشعرون بمدى مشاركتنا مصابهم، وكلما مر أحدهم معزيا يلقي في حجر كل واحد منا ما تيسر له من ريالات، يومها نعود وقد امتلأت جيوبنا بالنقود، زينا زي الفقيين اللي ورا الجنازة.

يصمت ويسأل والابتسامة لا تفارق وجهه:

- ماذا تسمون هذا؟

أشعر أن الجميع عازف عن الإجابة الصحيحة.

- إنها ثقافة المشاركة في المصاب، أليس كذلك؟

نظراته إليَّ ليست وليدة الصدفة، يدفعني بصورة غير مباشرة للرد والحديث، أحاول أن أتجمل بكلماتي فأسمي ما قاموا به بأنه أسلوب مشاركة، يخونني لساني وأستكمل:

- لكنه تحت بند التسول، عفوًا أستاذي.

يزداد ضحكًا ويرد كلماتي:

- مبدأ اللي يعرف أبويا يروح يقول له؟

يا جماعة اتفقنا من البداية إن كل واحد دفن كرامته، يعني سافر زملوط لا عايل هم ولا تحزنون.

أصمم بعد تكرار الاعتذار أن أسميها تسولًا، فيقول:

- يا جماعة أنا حاسس إن الواد ده ابن موت، بس لو مات هيموت من الجوع، أصل كرامته بتنقح عليه بالقوي، وأنا أمنية عمري إنه يعيش، القراية لحست مخه، وكلام كدابين الزفة عشش جوه دماغه، لازم أعمل فيه معروف، أصله غالي عليا وأبوه الله يرحمه كان حبيبي، النهارده بقى مدرس قد الدنيا، حد فيكم يسأله يا ابن الناس مرتبك بيكفيك كام يوم؟

قبل أن أتفوه بكلمةٍ قال ضاحكًا:

- عارفين لو مرتبه كمل معاه نص شهر، أنا هديله النص التاني من جيبي.

ضحك وضحكوا جميعًا، أنا وكل الجالسين نعرف أنه من المستحيل أن يضحي بمال، المصيبة أنه يجد مبررًا لكل أفعاله، التبرير أعظم الأفكار التي وجد الإنسان من خلالها تفسير أفعاله، فالكل يبرر برؤيته وقد تكون قاصرة بنسبةٍ عاليةٍ جدًّا.

اشتغلت تحت إمرته في تلك المدرسة، موقعها وسط المدينة التي نقطنها، وبمرور الوقت طغى توسع سوق المدينة عليها، أصبح السوق يحاصرها من مختلف الجهات، في الصباح مجرد وصول المدرسين والمدرسات فيه صعوبة بالغة نتاج الزحام غير العادي للبائعين والمشترين، عدد غير قليل من التلاميذ يهربون ليساعدوا أهاليهم في البيع والشراء، منهم أولاد يقولون لك:

- يعني ساعة أقلب فيها رزقي يمكن ربنا يرزقني بقرشين يا أستاذ.

الأستاذ مكادي هو مدير المدرسة، اختارته الإدارة بدقةٍ بالغة، هو الوحيد الذي يستطيع أن يجاري الجو العام المحيط بالمدرسة، رشحوا أكثر من مدير ولكنه يهرب، كل منهم يقول أسبابه

المقنعة أو غير المقنعة، لكن الحقيقة التي لا تقبل الشك أن المنطقة وما حولها تعتبر بؤرةً لكل الخارجين عن القانون، تجار كبار وصبيانهم في حركة دائبة وفي معارك مفتعلة طوال اليوم وكل شيء له خفاياه، استقر عزم الإدارة على الأستاذ مكادي، ليس للمجابهة أو التحدي لأباطرة السوق وتجاره، لكنه يتمتع بروح مرحة، حلال مشكلات كما يدعون، عندما نقل للمدرسة كنت قد سبقته معينا مدرسًا، كانت البداية لي، فليس باستطاعتي أن أرفض، رغم أن كثيرين حذروني من العمل في تلك المدرسة، بعض الزملاء يضحكون ويقولون:

- بالعكس لا هتشتغل ولا هتتعب وحتى الموجهين بيخافوا يروحوا هناك.

لكن لا أكذب عندما أقول بأنني كنت سعيدًا جدًّا لكوني سأشتغل تحت إمرة أستاذي ومعلمي الأستاذ مكادي، فعلًا كما يسمونه حلال عقد.

في خلال ثلاثة أشهر بلباقته المعتادة، لقبه أغلب التجار في السوق بالعمدة، في المساء وبعد صلاة العشاء يرتدي الجلباب ومسبحته في يده، ينطبق ويجالسهم فوق حصير أو على دكةٍ قديمةٍ مفروشةٍ أو غير، لكنهم ينزلونه منزلةً خاصة، حفلات الذكر والحضرة كثيرة، يدعونه ويلبي الدعوة غالبًا، بعيدًا عن الطعام وفي العلن، هناك ممنوعات أيضًا، لكنه حريص على (أن يأخذ حقه ناشفًا).

يقول إن الحشيش يرقى بالذهن والابداع، أما سنة الأفيون فإنها تقتل الألم وتبعث البهجة في أواصر الجسد حتى المتهالك، أشعر بأنه يتحدث أمامي بلا حواجز وكأنه يتعمد أن أشرب من تجرِبته

في مختلف المجالات، لا أنكر أنني معجب به، بعد مشورته وبمرور الوقت استغل كبار التجار فناء المدرسة وملاعبها لتخزين بضائعهم ولكن في الليل فقط، فرض عليهم إتاوةً ولكن بأمانةٍ كان نصفها يذهب للعمال والعاملات، النصف الباقي يكون من نصيب المدرسة في تجديد المرافق شبه المتهالكة، بل أحيانًا يرسل في طلب معونةٍ من كبار التجار، يلبون مطلبه، لجنة خاصة تحت إمرته أنا أحد أعضائها تتولى أغلب متطلبات المدرسة، رغم أن كل المدارس في المدينة تعاني من نقص الأثاث، لكن تلك المدرسة أصبحت تفوق أكثر المدارس تجهيزًا في المدينة كلها، معامل التطوير التكنولوجي في بدايتها، استطاع في خلال ستة أشهر إقامة معملٍ كامل بأجهزته المختلفة حتى أجهزة التكييف، بل إن توصيلات الإنترنت شبه المعطلة غالبًا دفع اشتراكها، الغريب أن التلاميذ يرهبونه، خفت حدة الهروب من المدرسة، من يضبط سيكون حسابه عسيرًا حتى لو كان ابن كبير التجار، يؤيدونه ويوافقون رؤيته، في العام الأول تبدو المدرسة نموذجية بالفعل، من كافة النواحي؛ فالعمل يسير على قدمٍ وساق، الأنشطة الطلابية حتى المسرح المدرسي، في نهاية العام الأول وفي الحفل المعتاد في كل المدارس، أقام السرادق داخل المدرسة، شمر كل الأساتذة عن سواعدهم في ظهور المدرسة في أفضل صورة، أجهزة كمبيوتر حديثة، توصيلات نت في قاعة مكيفة، دهانات شملت كل حجرات المدرسة بما فيها دورات المياه، كنت تأخذني الشفقة عليه أحيانًا، فلا يكل ولا يمل ويستطيع أن يواصل العمل الليل بالنهار، أي مشكلة في المدرسة لا تخرج من بين جدرانها إنما تحل في المدرسة وبرؤيته،

أنا أرى بعيني كل ما تم ومرجعيته آفاقه ورؤيته، أسمع بأذني ما يردده الناس وأولياء أمور التلاميذ وإشادتهم بالتحول في المدرسة، غالبًا لا يوجد متكاسل، الجميع يحاول إثبات وجوده.

كيف أقيِّم هذا الإنسان؟

أعوام طالت وتفرقت بنا السبل، الأستاذ مكادي شخص لا تضيع من ذاكرتي معالمه وأفكاره حتى التي لم أقرها في وقتها، أشعر وكأنه يسبق عصره أحيانا، وتأتي أيام البعثة وأسافر إلى المملكة المتحدة، والمكان جامعة "أست إنجليا" بولاية نورج، بالطبع لا وجه للمقارنة في سير العملية التعليمية بيننا وبينهم، فمجرد المقارنة حتى بأعداد التلاميذ في الفصل الدراسي بيننا وبينهم مسافة طويلة جدًّا، السبب وراء ذلك هو الانفجار السكاني والعشوائيات التي قتلت أشهر معالم البلد، بل تدهور العملية التعليمية الذي جعلنا في ذيل قائمة الدول بالنسبة للتعليم.

يوم السبت والأحد في إجازتنا المعتادة في الجامعة، نستكشف أحيانًا معالم المملكة المتحدة في زيارات تنظمها لنا الجامعة، أحيانًا نخرج لنمتع أعيننا بالجمال اللامتناهي، الخضرة على امتداد البصر، البحيرات، الأمطار وندف الثلج، معالم جميلة وجديدة، لم ننس طبعًا أن نتسوق ولكن في حدود إمكانياتنا المتاحة، ربما نشتري أشياءً من محلات "الشيرتي" الرخيصة وتناسبنا، أحياننا نتحرك ناحية الأسواق المقامة في البلدان الصغيرة المحيطة بالجامعة، غالبًا نجد بغيتنا.

في بلد قريب من الجامعة، قطعنا المسافة على أقدامنا حتى وصلنا، أكد لنا الزملاء ممن سبقونا أن تلك البلدة بها سوق فيه كل ما يخطر ببالكم وبأسعار مهاودة جدًّا.

وصلنا إلى البلدة ولم نصل إلى السوق بعد، سألنا عن موضعه فأفادونا بأنه في مدرسة في نهاية امتداد هذا الشارع.

السوق داخل مدرسة؟!

ترجع بي الذاكرة للأستاذ مكادي وأفكاره، أنتظر ريثما أتحقق مما يقولونه، قادنا زميل أقدم منا في الجامعة، المكان عبارة عن فناء مفتوح فيه أكثر من ملعب، بضائعهم فوق سياراتهم ولكل سيارة إيجار بعدد الساعات التي تقضيها، وكأنه جراج، يعرضون كل شيء وأي شيء، رجال نساء شباب، حركة دائبة، مشترون يتوافدون تباعًا، لقد فعلها المغفور له أستاذ مكادي، أتذكر يوم سألته:

- أنت تفكر خارج الصندوق.

- المهم يكون فيه نتيجة لتلك الأفعال.

- النتيجة واضحة، لكن كل هذا يعرضك للمساءلة القانونية.

- يا سيدي ياما دقت على الرأس طبول، أفضل من يعملون في مجال التعليم يتعرضون للمساءلة، وأنا لست أفضلهم لكنني أشعر بالرضا كلما فعلت الجديد، يجب أن نغير رتم الحياة ونكسر جمودها وأفكارها القديمة، كانت لي طموحات كثيرة -لكن الحمد لله اليوم ننفض أيدينا من التعليم- رغم هذا فنحن السبب في نكسة التعليم.

حقًّا هذا الرجل كان يسبق زمانه، يوم تركت مدرسة السوق كانت من أرقى المدارس في المدينة، كانت زاخرة بكل الإمكانيات المتاحة للمعلم والتلميذ.

عند زيارتنا الميدانية في أحد مدارس المقاطعة، سألت السيدة المديرة وكانت تصغرني سنًا وآية في الجمال والنشاط، عن أحقية

المدارس في تأجير الملاعب والأفنية أيام الأسواق، عرفت منها أن هذا ما تحدده ميزانية المدرسة ومدى استطاعتها الوفاء بمتطلبات العملية التعليمية وكذلك لتوفير الدعم المادي، مجلس الإدارة يناقش ويقرر بصورة ديمقراطية.

بعد العودة من البعثة، كتبت تقارير مفصلة عن الأفكار المطروحة للاستفادة من العملية التعليمية هناك ومحاولة تطبيقها عندنا، حاولت أن يبدو تقريري جيدًا فعكفت عليه لمدة لا بأس بها فخرج فعلًا جيدًا.

عندما هممت بالمضي من الوزارة، كان على مقابلة صديقي الدكتور (إسماعيل)، كانت سعادته بالغةً برؤيتي، شربت القهوة معه، في زهو بالغ قصصت عليه عن البعثة والتقرير الذي صغته ويمكن أن أرسل له صورته ليطلع عليها، مزهوًا أقص عليه، أشعر بأنه لا يشاركني سعادتي فيما أنتجته، في آسىً بالغٍ قال:

- ليتك لم تتعب نفسك.

- لماذا؟

- للأسف لا ينظرون إليها ولا يهتمون.

إحباط غريب تملكني، لكن عليَّ تكملة المسيرة فليست لدي مهنة أخرى أمتهنها سوى العمل في التربية والتعليم، وسارت بنا المسيرة، تخصلت رويدًا رويدًا من اللامبلاة التي اعترتني لفترة ربما طالت بعض الشيء، مارست حياتي في نشاط.

جاء ترشيحي لمنصبٍ قياديٍّ كبيرٍ وهو مدير عام، الغريب أن أغلب من يعرفونني عن قرب وكانوا مثلي متقدمين لشغل هذا المنصب يهنؤنني على المنصب وكأنني عُينت فعلًا، أما ما أثارني

أكثر الصديقة المشهود بكفاءتها ورقيها وبشهادة أغلب القيادات، بعد أن هنأتني مثل سائر الزملاء، قالت لي وبالحرف الواحد:

- المنصب كإنه متفصل عليك، أنت تستحق ذلك.

علمت أنها لم تتقدم بأوراقها وأنها قالت لي بثقةٍ غريبة:

- المكان أنت فقط من تستحقه.

بعد أن تقدمنا بأوراقنا في مبنى المحافظة، حُدد موعد للمقابلة الشخصية، أمام السيد السكرتير العام نائبًا عن المحافظ والسيد وكيل وزارة التربية والتعليم وبرفقتهما السيد وكيل وزارة التنظيم والإدارة.

وجوه بشوشة وأنا يحدوني أمل كبير ومستعد لأية أسئلة، قلبوا الأوراق أمامهم، شعرت أن السيد وكيل الوزارة يختلس إليّ نظراتٍ غريبة، ليس هناك ثمة علاقة بيننا، أنا أعرفه بصفته لكن الرجل لم يعرفني من قبل، تهتز الرءوس وهم يقلبون الأوراق، شعورٌ بالرضا تعكسه عينا السكرتير العام ومسئول التنظيم والإدارة.

توالت أسئلتهم وحمدًا لله كنت واثقًا ومتمكنًا من معلوماتي حتى البعيدة عن العملية التعليمية، شعرت بأنهم استحسنوا ردود أفعالي.

في ود استشعرته طرح معالي السكرتير العام سؤالًا:

- أنت في الوقت الحاليّ تشغل منصب مدير إدارةٍ مدرسيَّة، فماذا تفعل لو الامكانيات المتاحة غير كافية، والمكان يحتاج لكثير من الخِدْمات والإصلاحات؟

كانت إجابتي أنه في حالة التعذر لا مانع من اللجوء لتفعيل نظام الخدمة المجتمعية من خلال رجال الأعمال ورجال الخير.

جاء السؤال التالي:

- لم توفق في مسعاك.

- عليَّ التفكير بصورة غير تقليدية.

ضربت مثلًا بالمغفور له الأستاذ مكادي الذي جعل من مدرسة السوق مدرسةً من أفضل مدارس المحافظة.

وكيل وزارة التعليم ينظر إليَّ ويسألني:

- عملت تحت قيادته؟

- كان لي الشرف يا سيدي.

لكن لم أشر من قريب أو بعيد إلى ما كان يفعله رحمه الله وطيب ثراه، توالت أسئلتهم فوق رأسي وعندما صمموا أن يسمعوا رؤيتي، شرحت لهم عن المدرسة التي تفتح أبوابها للإيجار يوم السوق، وأن هذا الوضع قائم في بلادٍ درجة التعليم فيها راقية جدًّا، وكيف يأتي التجار بسيارتهم المحملة ويدفعون إيجارًا للمدرسة وتستفيد منه المدرسة في سد احتياجاتها، وجدت استحسانًا فوق الوجوه، فأضفت:

- وما المانع من أن أجعل من فناء المدرسة قاعةً للأفراح أو قاعةً للعزاء وكل هذا سيتم ليلًا، وللشباب والرياضة تجرِبة مماثلة.

لم يستطع السيد وكيل الوزارة أن يكظم غيظه، ألقى فوق رأسي وابلًا من العبارات المستهجنة لتلك الأفكار الدخيلة على العملية التعليمية.

لم أنس مطلقًا أنه وصفني وأمثالي بأننا السبب في فشل منظومة التعليم في مصر.

الحقونا

- هل تم تحديد الهدف؟
- نعم سيدي.
- هل يحمل شيئًا؟ حقيبة أو ما شابهها؟
- لا يا سيدي.
- الصور التي أرسلت من مختلف الزوايا تؤكد أنه الشخص المطلوب، عليكم أن تتوخوا الحذر فهو قاتل محترف، احذروا فالزحام في تلك المنطقة شديد.
- لقد فقدنا تتبع أثر الحقيبة وأين وضعها، مؤكد سيبتعد والتفجير مؤكد سيتم عن بعد، الزحام يشتد.
- لا تغلق عينك عنه، أنت الوحيد الآن الذي تتبع خطاه.

خلع عن نفسه لباسه الأمني، وأقترب منه أكثر، يراقب حركته بدقةٍ متناهية، ينظر حوله في توجسٍ ورعب، بمجرد أن أخرج هاتفه المحمول، هجم عليه، كان مهمومًا أن يستخلص الهاتف من بين يديه، ضربه بقسوة بالغة، وشغله الشاغل المحمول، كانت ضرباته القاسية كفيلة بأن يفتح كف يده، أخذ منه المحمول، في صرخاته القوية ومحاولاته الإفلات يستنجد بالناس، يتعاطفون، فالضابط وهو بلباسه المدني كما يشاهدون يضربه بوحشيةٍ مفرطة، كان له عذره في وحشيته وثأره؛ فقد تأكد إنه نفس الشخص الذي قتل صاحبه من شهرين سابقين.

كبله جيدًا بل شل حركته، الناس تطلق عباراتٍ تطالبه بالرحمة، يزعمون بأن ما يرتكبه جرم، حرام أن يضربه بهذا العنف، لا يعرف

كيف يرد عليهم؛ فقد ماتت الكلمات فلم يدر كيف يبرر فعله ربما وصل للوحشية فعلًا، يضربه والدموع تغلب انفعالاته المتباينة، فما زالت آثار دماء صاحبه فوق ملابسه يراها كل يوم.

تعاطفوا مع الإرهابي القاتل، هجموا على ضابط الأمن السري، خلصوه من بين يديه، رغم ذلك ماتت يداه على الهاتف المحمول.

انفجرت الحقيبة..

وهرب من بين يديه ليعود ليقتلهم من جديد.

الفهرس